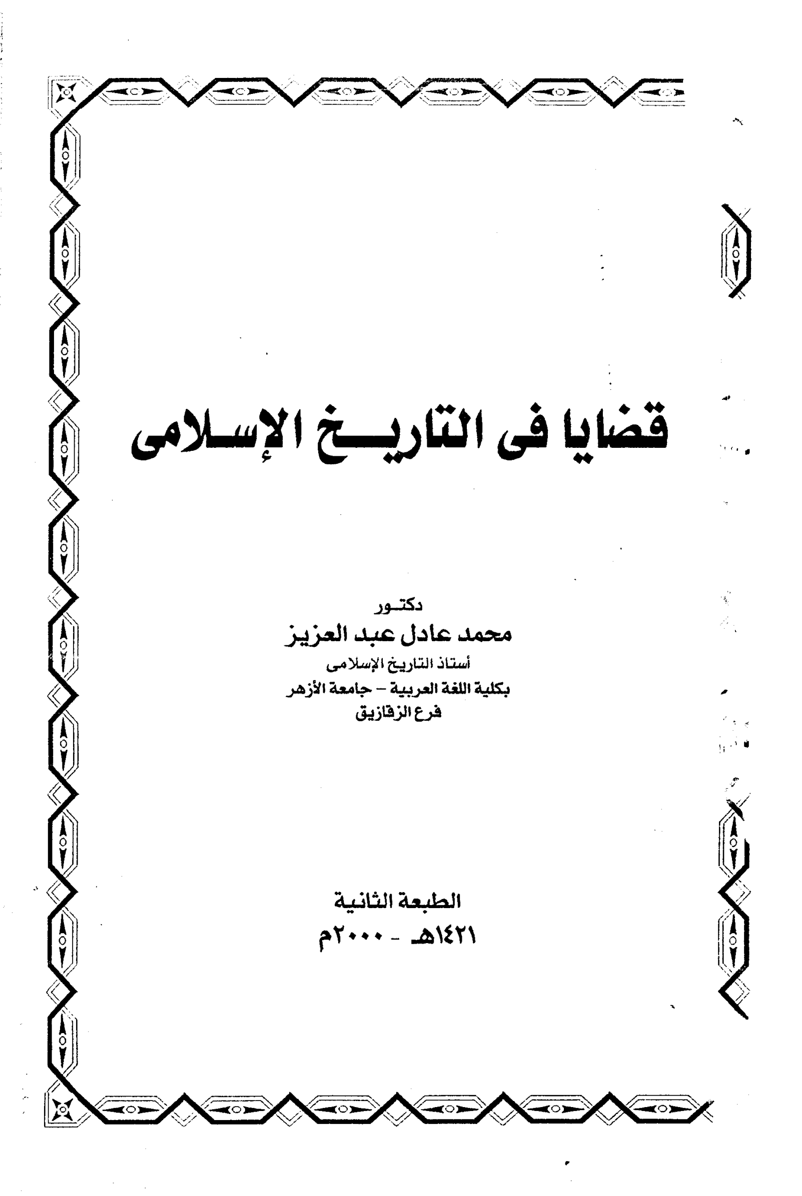
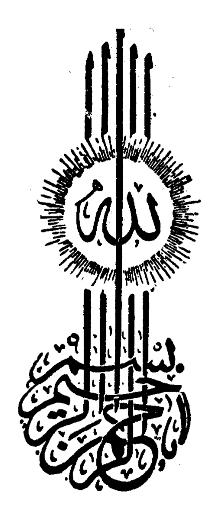


قضايا فى التاريـــخ الإسـلامى

دكتـور
محمد عادل عبد العزيز
أستاذ التاريخ الإسلامى
بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر
فرع الزقازيق

الطبعة الثانية
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م





إهـــــداء

إلى حفيـــدىّ محمـــد و عمـــرو

متمنيا واقعا أفضل لمسـيرة الإيمـان

مقدمـــــــة

الحمد لله رب العالمين. الذى علم بالقلم. علم الإنســـان مـــا لـــم يعلـــم. والصلاة والسلام على الرسول المبعوث رحمة للعالمين. سيدنا محمد وعلى آلـــة وصحبه أجمعين.

وبعد، فالتاريخ علم تحقيق وتدقيق، والنبوغ فيه يحتاج إلى درجـــة مـــن الوعى بقوانين النقد والحكمة. والتاريخ الإسلامى على وجه الخصوص يحتـــاج إلى درجة عالية من ذلك الوعى التاريخى لأربعة أسباب رئيسية:

السبب الأول، أننا كثيراً ما نمـــر بنصـــوص ترويـــها كتـــب التـــاريخ الإسلامى، وهى تتعارض مع البديهى من تعاليم الإسلام، وتارة أخرى تروى لنـــا فى سير الصحابة ما لا يتفق مع خلقهم الرفيع، وما لا يتفق أيضا مع مركزهـــم الدينى، ولا يليق بصحبتهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – الأمـــر الـــذى يفرض علينا أن نتعامل مع مثل تلك النصوص بالحذر اللازم، والدقة المطلوبة.

والسبب الثانى، وهو أن أصول وثائق التاريخ الإسلامى معظمها مفقـــود بدءاً من ابن اسحاق، وابن هشام مروراً بالطبرى وابن مسكويه حتـــى مؤرخـــو الدولة المملوكية وغيرها من الدول الإسلامية. وما وجـــد مـــن تلـــك الوثـــائق فأماكـــن وجوده ليست عادة هى دور الوثـــائق والأرشـــيفات، وإنمـــا المحـــاكم والمتاحف ووزارات الأوقاف ودواوينها فى العالم الإسلامى. بل وفـــى المنـــازل فى أحيان كثيرة كما هو الحال فى بلاد المغرب العربى.

والسبب الثالث، وهو الروايات المغرضة من بعـــض كتّـــاب التـــاريخ لأهداف سياسية، أو مصالح شخصية. كما أنه لا يفوتنا أنه منذ أن وجد الإســـلام ولد معه خصومه، وعاش يعانى من كيدهم صنوفاً مـــن الفتـــن، وألوانـــا مـــن الافتراءات إستطاعوا أن يدسوها فى كتب التاريخ لينالوا من الإسلام، وليفقـــدوا أعلامه البارزين المنزلة التى ينبغـــى أن تكون لهم حتى يفقد شـــباب المســـلمين القدوة، فيختل توازنهم.

أما السبب الرابع، فهو النقل دون تحقيق أو تدقيق، وفى ذلك يقول ابن خلدون: "إنه كثيراً ما وقع للمؤرخين وأئمة النقل من المغالط فى الحكايات والوقائع لإعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة، فضلوا عن الحق، وتاهوا ببيداء الوهم والغلط".

لهذه الأسباب فإننى أرى أن التاريخ الإسلامى لم يكتب بعد كما ينبغى ، وأنه ما زال بكراً يحتاج إلى أجيال على درجة عالية من الوعى بالإسلام والتاريخ الإسلامى ليرفعوا لنا ذلك الصرح العظيم.

وقد تناولت فى هذا الكتاب أربع قضايا من القضايا الهامة فى التاريخ الإسلامى.

الأولى: وهى ما تردد فى بعض الكتب بأن قيام الخلافة قد صاحبه نزاع كبير وانقسام بين الصحابة كاد يفتت وحدة المسلمين، وقد كشفت الدراسة لأول مرة أن هذه المزاعم ليس لها أى سند تاريخى سوى نص واحد ورد فى كتاب الأمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة، والذى يذكر فيه أن على بن أبى طالب امتنع عن مبايعة أبى بكر هو وجماعة من الهاشمية، وأنه قال نحن أولى برسول الله حيا وميتا، وللأسف فقد تبع ابن قتيبة عدد كبير من المؤرخين خاصة فى عصرنا الحديث دون دراسة متأنية للنصوص. وقد كشف الكتاب عدم صحة ما ورد فى كتاب الأمامة والسياسة بموضوعية ومنهجية علمية، وأن على بن أبى طالب برئ من هذا الموقف.

والقضية الثانية: هى قضية حركة الفتوح الإسلامية والتى تباينت الآراء فيها تبايناً كبيراً فبينما يرى فريق أنها كانت اندفاعه دينية استهدفت

نشر الإســلام بحد السيف، يرى فريق آخر أن حركة الفتوح الإسـلامية كـانت لكسر الحواجز التى وقفت عائقاً أمام حركة الدعوة إلى الإسلام، ويـرى فريـق ثالث أنها كانت لإقرار الحق ونشر العدل، أما الفريق الرابع فهو لا يـرى فـى الفتوحات الإسلامية إلا دافعاً اقتصادياً استهدف الإستيلاء على خيرات تلك البـلاد المفتوحة. وقد انتهت الدراسة فى تلك القضية إلـى أن الفتوحـات الإسـلامية كانت رداً لعدوان أدى إلى نصر الله وخضوع الدول المعتدية للمسلمين.

والقضية الثالثة: هى قضية تعريب بعض البلدان التى فتحها المسـلمون. فقد كانت محصلة ما تردد فى كتب التاريخ: أن أسباب التعريب كـانت إنتشـار الإسلام، وهجرة القبائل العربية إلى البلدان المفتوحة، وتعريب الدواوين، وتفـوق الحضارة الإسلامية. وقد ناقش الكتاب كل تلك الأسباب المتداولة وكشـف لأول مرة أن هذه الأسباب قد تؤدى إلى إنتشار اللغة العربية، لكنها أبداً لن تؤدى إلـى التحول إلى اللسان العربى وتعريب تلك الدول، ثم انتهى الكتاب إلى تفسير علمى لحركة التعريب كشف فيه عن السبب الرئيسى الذى أدى إلـى تعريـب بعـض البلدان التى فتحها المسلمون، وهو (القرابة اللغوية).

أما القضية الرابعة: فهى محاولة لإلقاء بعـض الأضـواء علـى لغـز القضاء على الخلافة الإسلامية، وكشف الدور الخبيث الذى لعبته بريطانيا فـى تنمية الخلاف بين الرجلين، الشريف حسين، والملك عبـد العزيـز آل سـعود لضرب الخلافة الضربة القاضية وهو نفس الدور الذى لعبه أعداء الإسلام منـذ عصر الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم فبعد أن وجدوا أنفسهم لم ينـالوا من الإسلام رغم نجاحهـم فى قتل الخليفة الثانى عمر بن الخطـاب، ثـم مـن بعـده عثمان بن عفـان - رضى الله تعالى عنهما - رأوا أن يوجهوا حربتـهم إلى الصف الإسلامى حتى استطاعوا أن يقسموا المسلمين إلى معسكرين. ولـم يكن انقسام المسلمين إلى معسكرين أيام الفتنة الكبرى لتنـاقض المصـالح بيـن

المعسكرين، أو لصراع على السلطة، لأنه كان على رأس كل من المعسكرين عدد من العشرة المبشرين بالجنة، الذين مات رسول الله – صلى الله عليه وسلم. وهو عنهم راض، وإنما كان بفعل حاقد خسيس وصدق الله العظيم: "**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والأخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**".

وأخيراً أرجو أن يكون هذا الكتاب لبنة فى صرح جديد يعاد فيه كتابة التاريخ الإسلامى.

مصر الجديدة فى ٢٠٠٠/٦/٢٢م

دكتور

محمد عادل عبد العزيز

القضيــة الأولى

قيـام الخلافـة وموقف الصحابـة

القدوة ضرورة لتربية المجتمع، ولذلك قام الإسلام على القرآن الكريـــم، والقدوة الحسنة سنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبذلك وضــــع الإســـلام الأسس العامة للمجتمع، ولم يتعرض فى كثير من الأحوال للتفاصيل، وكان مـــن جراء ذلك أن تطورت نظم الحكم والإدارة والتشريع فى الدولة الإسلامية حســب الظروف التاريخية ومقتضيات المجتمع، ولكن فى إطار أحكام الإسلام ومبادئـــه الأساسية (١).

وقد شاءت عناية الله عز وجل أن تقوم الخلافة فى نفس يوم وفاة رســول الله - صلى الله عليه وسلم - دون فكــر مســبق أو ترتيــب مــن الرســول أو الصحابة، وقد كان ذلك أمراً طبيعياً، فلم يكن فى وسع رســول الله - صلـــى الله عليه وسلم - أن يعهد لأحد أصحابه قبل وفاته بالنبوة!؟ أو أن يحدد وريثـــاً دون أن يكون له عرش، فهو - عليه الصلاة والسلام - لم يكن امبراطوراً ولا ملكاً!!

يذكر ابن هشام فى سيرته. قال ابن إسحاق: لمـــا قبــض رســـول الله - صلى الله عليه وسلم - انحاز هذا الحى من الأنصار إلى سعد بـــن عبـــادة فـــى سقيفة بنى ساعدة، واعتزل على بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحـــة بـــن عبيد الله فى بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبى بكر، وانحـــاز معـــهم أسيد بن حضير فى بنى عبد الأشهل (٢).

---

(١) دكتور حسن الباشا: دراسات فى الحضارة الإســـلامية، دار النهضـــة العربيـــة القـــاهرة ١٩٨٨، ص٣٣ .

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق عبد السلام تدمرى، جـ ٤ ص٣٠٨ .

هذا السلوك الذى سلكه الصحابة – رضى الله تعالى عنهم – هو سلوك طبيعى، لأن السلوك الاجتماعى إزاء الكوارث يحتم أن تلتف كل جماعة حول قيادتها، فالتفاف الأنصار حول سعد بن عبادة أمر متوقع فهو كبير الأنصار، والتفاف بنى هاشم حول فاطمة الزهراء – للصبر والعزاء بعد ما أذهلها المصاب الفادح فى والدها العظيم – صلى الله عليه وسلم – أمراً طبيعياً ومتوقعاً أيضا!؟.

وكان التفاف المهاجرين حول أبى بكر ليستمدوا من قوة إيمانه الصبر أمرا منطقيا، وهل كان هناك غير أبى بكر ليتصدى لتلك المهمة الخطيرة !؟.

هذا هو موقف الصحابة – رضى الله تعالى عنهم – عقب سماعهم نبأ وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو كما رأينا كان موقفا طبيعياً ومنطقيا، أما ما يثير الدهشة حقا فهو سرعة تولد فكرة الخلافة بين الأنصار، بل وسرعة تطور الموقف فى سقيفة بنى ساعدة، وتحول اجتماعهم إلى جلسة ترشيح لسعد بن عبادة بالخلافة!؟.

وقبل أن نحاول التماس الأسباب التى عجلت ببلورة فكرة الخلافة عند الأنصار قبل المهاجرين فإنه يجب علينا أن نجيب أولا على هذا السؤال الهام وهو: لماذا كان عرب يثرب أسرع تقبلا للدعوة الإسلامية من القرشيين فى مكة؟.

فى الواقع كان عرب يثرب أسرع تقبلاً للدعوة الإسلامية من القرشـــيين فى مكة لعدة أسباب: كانت يثرب فى الجاهلية تضم كتلتين رئيسيتين من الســكان اليهود والعرب، وكان أكبر هذه القبائل اليهودية ثلاثا: بنو قريظة، وبنو النضــير، وبنو قينقاع، أما العرب فكانت أهم قبائلهم قبيلتان: قبيلة الخزرج، وقبيلــة الأوس، وكانت علاقة اليهود بعرب يثرب سيئة حتى أن هؤلاء العــرب صممــوا قبــل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة على إجلاء اليهود عنها، كذلــك كان العرب أنفسهم متعادين فقد وقعت بين الخزرج والأوس حرب عدة نخــص بالذكر منها ما حدث فى يوم (بعاث) حيث انتصرت قبيلــة الأوس علــى قبيلــة الخزرج قبل الهجرة بسنوات قلائل [1]. رغم قلة عددها عن الخزرج، وقد كـان من بين نتائج موقعة بعاث ميل الأوس والخزرج إلى تولية عبد الله بن أبى بـــن سلول سيد الخزرج فى هذا الوقت – أميراً عليهم جميعاً حقنا للدماء [2] غير أنــه حدث أن التقى حجاج يثرب بالنبى – صلى الله عليه وسلم – بالعقبة ثم بـــايعوه، وقبلوا دعوته، كما رجعوا فى العام التالى بالبيعة بهجرته إلى قومهم، ودعوتــهم إلى نصرة الإسلام والدخول فى طاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – فلقيــت دعوتهم قبولاً منهم وعدولا بذلك عن تولية عبد الله بن أبى [3].

وقد سارع الأوس إلى قبول دعوة الرسول والترحيب بهجرته، لاعتقادهم أنه لم يتقدم عليه أحد بيثرب من الخزرج، أما الخزرج فقد رحبوا بدعوة الرسول

---

[1] دكتور محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد – صلى الله عليه وسلم – دار الفكر العربى ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م ص٨٣.

[2] السمهودى: كتاب الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم – جـ١ ص١٥٥ .

[3] ابن خلدون.

- صلى الله عليه وسلم - وهجرته إلى مدينتهم لوثوقهم من أنه يستطيع جمعهم مع الأوس تحت لوائه بعد انهزامهم فى موقعة بعاث، وفضلا عن ذلك لأنه من أكرم بيوتات قريش وسادتها ولصلة النسب التى تربطهم به([1]) فهو حفيد عبد المطلب ابن سلمى بنت زيد من بنى النجار أحد بطون قبيلتهم الخزرج ([2]).

لذلك كان الأنصار أسرع استجابة لمشاعر الخطر الذى يهددهم بوفاة النبى - صلى الله عليه وسلم، وهذا ما يفسر قول معن بن عدى الأنصارى حيث قال: إن الناس (يعنى الأنصار) بكوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين توفاه الله عز وجل، وقالوا: والله لوددنا أنا متنا إنا نخشى أن نفتتن بعده([3]).

لذلك ارتبطت سرعة تولد فكرة الخلافة ارتباطا وثيقا بسرعة تقبل الأنصار للإسلام عن القرشيين فى مكة، فهو أمر حتمته ظروف الأنصار، أضف إلى ذلك أن الأنصار كانوا هم سكان المدينة الأصليين، والمهاجرين وافدون عليهم، وأن المبادرة كانت يجب ألا تأتى إلا منهم.

الترشيح واختيار الخليفة:

لذلك اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة وقالوا: نولى الأمر سعد بن عبادة سيد الخزرج، فأخرجوا سعدا إليهم وهو مريض، فطلب سعد أبنه أو بعض

([1]) دكتور محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية ص٨٤.

([2]) محمد رضا: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٨ ص١٧.

([3]) ابن هشام: السيرة النبوية جـ٤ ص٣١١ الطبرى: تاريخ الطبرى جـ٣ ص٢٠٧ .

بنى عمه أن يتلقى منه القول ثم يسمعه القوم لعدم قدرته على أن يســـمع القـوم كلهم كلامه لمرضه، فكان يتكلم وينقل الرجل قوله، فيرفع صوته فيســـمع كـل المجتمعين: فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشر الأنصار، لكم سابقة فـــى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن محمـــدا عليـه الصــلاة والسلام – لبث بضع عشرة سنه فى قومه يدعوهم إلى عبـادة الرحمـن وخلـع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل، وكان ما كـانوا يقـدرون على أن يمنعوا رسول الله، ولا أن يعزوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيمـا عموا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة، ساق إليكـم الكرامـة وخصكـم بالنعمـة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والاعزاز لـــه ولدينـه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم، وأثقلـه علـى عـدوه مـن غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها، وأعطى البعيـد المقـادة صاغرا داخرا، حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض، وبكم قرير عين، استبدوا بهذا الأمر فإنـه لكم دون الناس.

فأجابوه بأجمعهم: أن قد وفقت فى الرأى وأصبت فى القول، ولن نعـدو ما رأيت، ونوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضا.

ثم ترادوا الكلام بينهم، فقالوا: فإن أبت مهاجرة قريـش، فقـالوا: نحـن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون، ونحـن عشـيرته وأوليـاؤه، فعـلام تنازعوننا هذا بعده!

فقالت طائفة منهم: فإنا نقول إذا: منا أمير ومنكم أمـــير، ولـــن نرضـــى بدون هذا الأمر أبدا، فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا أول الوهن! ([1]).

ويصل بعد قليل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ويدخلـــون علـــى الأنصار وهم مجتمعون، فقد ذكر ابن هشـــام أنه قد أتى آت إلـــى أبـــى بكـــر وعمر، فقال: إن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبـــل أن يتفـــاقم أمرهـــم، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى بيته لم يفرغ من أمره قد أغلق دونـــه الباب أهله، قال عمر: فقلت لأبى بكر: أنطلق بنـــا إلـــى إخواننـــا هـــؤلاء مـــن الأنصار، حتى ننظر ما هم عليه ([2]).

أما الطبرى فيذكر أن خبر اجتماع الأنصـــار فى سقيفة بنى ساعدة قـــد أتى عمر بن الخطاب أولا، فأقبل عمر إلى منزل النبى – صلى الله عليه وسـلم – فأرسل إلى أبى بكر أن اخرج إلى فأرسل إليه: إنى مشتغل. فأرسل إليه أنه قـــد حدث أمر لا بد لك من حضوره، فخرج إليه، فقال: أما علمت أن الأنصـــار قـــد أجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمـــر ســـعد بـــن عبـــادة، وأحسنهم مقالة من يقول: منا أمير ومن قريش أمـــير، فمضيـــا مســـرعين نحوهم ([3]) ويذكر بن هشام أنهما وهما فى الطريق لقيا رجليـــن صـــالحين مـــن الأنصار فذكـــرا لهما ما تمالا عليه القوم، وقـــالا: أيـــن تريـــدون يـــا معشـــر

([1]) الطبرى: تاريخ الرسل جـ٣ ص٢١٨.

([2]) ابن هشام: السيرة النبوية جـ٤ ص٣٠٨.

([3]) الطبرى: تاريخ الرسل جـ ٩ ص٢١٩.

المهاجرين؟ قالوا: نريد أخواننا هؤلاء من الأنصار قالا: فلا عليكم ألا تقربوهـــم يا معشر المهاجرين، اقضوا أمركم، فقال عمر: والله لنأتينهم ([1]).

أما الطبرى فيذكر القصة السابقة موضحا أن الرجلين الصالحين همـــا: عاصم بن عدى، وعويم بن ساعدة، وأن هـذا اللقاء حدث بعد أن انضـــم أبــو عبيدة بن الجراح إلى بكر وعمر، وليس قبل ذلك ([2]).

ويستطرد ابن هشام على لسان عمر بن الخطاب حيث يقـــول، فانطلقنـــا حتى أتيناهم فى سقيفة بنى ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل، فقلـت: مـــن هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟ فقالوا: وجع. فلما جلسنا نشهد خطيبــهم فأثنى على الله بما هو له أهل، ثم قال: أما بعـــد، فنحـــن أنصـــار الله وكتيبـــة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة من قومكم (الجماعـــة من الناس تأتى من بلد إلى بلد) قال: وإذا هم يريدون أن يحتازونا مـــن أصلنـــا، يغصبونا الأمر، فلما سكت أردت أن أتكلم، وقـد زورت (أعددت) فـــى نفســـى مقالة قد أعجبتنى، أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر، وكنت أدارى منـــه بعـــض الحد (الحدة)، فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبـــه، فتكلـــم، وهو كان أعلم منى وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتنى مـــن تزويـــرى إلا قالها فى بديهيته، أو مثلها أو أفضل ([3]).

([1]) ابن هشام: السيرة النبوية جـ ٤ ص٣١٠.
([2]) الطبرى: المصدر السابق جـ٣ ص ٢١٩.
([3]) ابن هشام: السيرة النبوية جـ٤ ص٣١٠ الطبرى: تاريخ الرسل جـ٣ ص٢١٩.

وقبل أن نتابع الكلمة التى قالها أبو بكر نود أن نشير إلى حقيقة هامــــة، وهى أن الأنصار رغم أنهم لم يرشحوا للخلافة إلا مرشحا واحدا وهو سعد بــن عبادة، ورغم أنه أيضا مضى من الوقت ما يكفى للأنصار أن يبايعوا مرشـــحهم الوحيد قبل أن يحضر وفد المهاجرين إلى سقيفه بنى ساعدة إلا أنهم رغم هذا لـم يبرموا أمرا حتى وصل وفد المهاجرين، وهــــذا إن دل فإنمـا يـدل علـى أن الأنصـــار رغم أنهم قد أجمعوا على ضرورة قيام الخلافة، ورغم أجماعهم على أن مرشحهم لهذا المنصب هو سعد بن عبادة فقط دون منافس آخر من الأنصـار فإنهم لم يكونوا على قناعة كافية بأن يكون الخليفة منهم، لأنه لم يكن هنـــا مـا يمنعهم من أن يبايعوا سعد بن عبادة، ويضعوا المهاجرين أمام أمر واقع!

لذلك فإن اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ســـاعدة لا يعـدو أن يكـون لتدارس الموقف بعد وفاة الرسول -صلى الله عليه وسلم - والإعـــداد لخـوض عملية انتخاب الخليفة.

بدأ أبو بكر حديثه فى اجتماع السفينة بحمد الله والثناء عليه، ثم قـال: إن الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه، وشهيدا على أمته، ليعبدوا الله ويوحدوه وهـــم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة، ولهم نافعة، وإنمـــا هى من حجر منحوت، وخشب منجور، ثم قرأ ([1]): ويعبدون من دون الله مـا لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ([2]): "وقالوا ما نعبدهــم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" ([3]) فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائـــهم فخـص الله

([1]) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ص ٢١٩.

([2]) الآية الكريمة ١٨ من سورة يونس.

([3]) الآية الكريمة ٣ من سورة الزمر.

المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والإيمان به والمواساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم، وتكذيبهم إياهم، وكل الناس لهم مخالف زار عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار، من لا ينكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عند أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة ولا نقضي دونكم الأمور [1].

وتمضي وقائع الجلسة في جو تسوده حرية الرأي فيقوم الحباب بن المنذر ليعرض الرأي الآخر بعد أن عرض أبو بكر وجهة نظر المهاجرين، فقال: يا معشر الأنصار، املكوا عليكم أمركم، فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم، ولن يجترئ على خلافكم، ولن يصدر إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة، وأولو العدد والمنعة والتجربة، ذوو البأس والنجدة، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض عليكم أمركم، فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات، لا يجتمع اثنان في قرن! والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة

---

(1) الطبري: المصدر السابق جـ٣ ص٢١٩، ٢٢٠.

الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته: ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم ومتورط فى هلكة! ([1]).

فقام الحباب بن المنذر مرة أخرى وقال: يا معشر الأنصار، املكوا على ايديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد، وتولوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين، أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب! أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة (فتية).

فرد عليه عمر: إذا يقتلك الله! قال: بل إياك يقتل!([2]).

ويورد الطبرى فى كتابه (تاريخ الرسل والملوك) كلمة قصيرة لأبى عبيدة بن الجراح ألقاها حين تحرج الموقف بين الحباب بن المنذر وعمر بن الخطاب قال فيها: يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدل وغير.

ولما كانت كلمة أبى عبيدة بن الجراح السابقة هى الكلمة الوحيدة التى ذكرها الطبرى له فإن هذا يعنى أحد أمرين: أولهما أن أبا عبيدة بن الجراح قال كلمته هذه قبل أن يتحرج الموقف بين الرجلين الحباب وعمر حيث يذكر الحباب فى كلمته (ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه) يعنى أن كلا من الرجال الثلاثة قد تكلم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، ما دامت أنها الكلمة الوحيدة التى وردت على لسان أبى عبيدة بن الجراح، وثانيهما أن تكون كلمة أبى عبيدة بن

([1]) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ ص٢٢٠.

([2]) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

الجراح فعلا قالها لما تحرج الموقف بين الحباب وعمر، وفى هذه الحالة يكــون لأبى عبيدة كلمات أخرى قالها فى تلك الجلسة التاريخية ولكن المصادر أهملتها.

وبعد ذلك يلقى أحد الأنصار - وهو بشير بن سعد - كلمة هيأت القضيــة للحكم فيها، كما يتضح منها أيضا أن الأنصار قد تهيأوا بعد تلك المناقشات لقبول الحكم لصالح المهاجرين، قال بشير بن سعد: يا معشر الأنصار، إنا والله لئن كنــا أولى فضيلة فى جهاد المشركين، وسابقة فى هذا الدين، ما أردنا بــه إلا رضــا ربنا وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلــك، ولا نبتغى به من الدنيا عرضا، فإن الله ولى المنة علينا لذلك، إلا أن محمــدا - صلى الله عليه وسلم - من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يرانــى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم! ([1]).

وهكذا تهيأ الجو لأن يحسم أبو بكر الموقف فقال: أما ما ذكرتم فيكم مــن خير، فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، هــم أوسط العرب نسبا ودارا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجليــن، فبــايعوا أيــهما شــئتم ([2]) وأخذ بيد عمر ويد أبى عبيدة وهو جالس بينهما ([3]) لكن عمر وأبــا عبيدة قالا: لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك، فإنك أفضــل المــهاجرين وثــانى اثنيــن إذ هما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة دين المســلمين فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ([4]).

([1]) الطبرى: تاريخ الرسل جـ٣ ص٢٢١.
([2]) ابن هشام "السيرة النبوية جـ٤ ص٣١٠ الطبرى: تاريخ الرسل جـ٣ ص٢٢١.
([3]) ابن هشام: المصدر السابق جـ٣ ص٢٢١.
([4]) الطبرى: تاريخ الرسل جـ٣ ص٢٢١.

ويشير ابن هشام إلى محاولة من رجل من الأنصار عـــرض فيـــها أن يشترك الأنصار مع المهاجرين فى الإمارة حيث قال: منا أمير ومنكم أمـــير يــا معشر قريش ([١]) بينما يشير الطبرى أن هذه المحاولة كانت من أكثر مـــن فـــرد من الأنصار حيث يذكر: (فقالوا منا أمير ومنكم أمير) ([٢]).

ويبدو أن أبا بكر كرر هنا ما قاله عليهم من قبل وهو قوله: منا الأمـــراء ومنكم الوزراء، لأن الطبرى يذكر هذا القول لأبى بكر مرة أخـــرى فـــى هـــذا الموقف ([٣]).

ويسرع عمر بن الخطاب بحسم الموقف فيذكر ابن هشام علـــى لســـان عمر أنه قال: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى تخوفت الاختلاف، فقلـــت: أبسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته ([٤]).

ويعلق عمر بن الخطاب – رضى الله تعالى عنه – على ما حدث بقولـه: أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرا هو أوفق من مبايعة أبـــى بكـــر خشـــينا إن فارقنا القوم، ولم تكن بيعة، أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما أن نبايعـــهم علـــى مـــالا نرضى وإما أن نخالفهم فيكون فيه فساد ([٥]).

يفهم مما سبق أن الصحابة لم يختلفوا فى سقيفة بن ساعدة، وأنـــه كـــان هناك حرص شديد على عدم الاختلاف، والدليل على ذلك شـــهادة عمـــر نفســـه

([١]) الطبرى: تاريخ الرسل جـ٣ ص ٣١١.
([٢]) المصدر السابق ص ٢٠١.
([٣]) المصدر السابق جـ٣ ص٢٠١.
([٤]) ابن هشام: السيرة النبوية جـ٤ ص٣١١.
([٥]) السيوطى: تاريخ الخلفاء، دار الفكر، لبنان – بيروت، ص ٦٣.

حيث يقول "حتى تخوفت الاختلاف" وقوله "وإما نخالفهم فيكون فيه فساد"، ثم أين هذا الاختلاف - الذى يتصوره البعض للأسف - رغم علمهم يقينـــا أن عمليـــة الترشيح للخلافة، واختيار الخليفة ثم بيعته فى سقيفة بنى ساعدة كلها تمـــت فـــى سويعات قليلة من يوم واحد هو نفس يوم وفاة الرســـــول - صلـــى الله عليـــه وســـلم !؟.

وقائع البيعة الخاصة والبيعة العامة

انتهى اجتماع سقيفة بنى ساعدة بترشيح أبى بكر - رضى الله تعالى عنه - للخلافة، وعليه طلب عمر بن الخطاب من أبى بكر أن يبسط يـــده للمبايعـــة، وهو ما عرف بالبيعة الخاصة تمييزا عن البيعة العامة التى تمـــت فـــــى اليـــوم التالى فى المسجد النبوى الشريف.

وقد انحصرت البيعة الخاصة فى المجتمعين فى سقيفة بنى ساعدة فقـــط، ويفهم من كلام ابن هشام أن عمر بن الخطاب كان أول من بايع أبا بكر بالخلافة حيث يذكر على لسان عمر: "فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته" ([1]).

وهذا ما يفهم من كلام الطبرى أيضا حيث يقول: "فبايعه عمـــر وبايعـــه الناس" ([2]) لكن الطبرى يعود فيوضح أنه لما ذهب عمر بن الخطاب وأبو عبيـــدة بن الجراح لمبايعة أبى بكر، سبقهما إليه بشير بن سعد، فبايعه ([3]).

([1]) ابن هشام: السيرة النبوية جـ٤ ص٣١١.

([2]) الطبرى: تاريخ الرسل جـ٤ ص٣١١.

([3]) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٠٢.

ثم يذكر الطبرى أنه لما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد، وما تدعـو إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضـهم لبعـض، وفيهم أسيد بن حضير – وكان أحد النقباء: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مـرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم نصيبا أبدا فقوموا فبـايعوا أبا بكر، فقاموا إليه فبايعوه، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كـانوا أجمعوا له هو أمرهم ([1]).

وأقبلت أسلم بجماعتها حتى تضايقت بهم السكك، فبايعوا أبا بكـر وهنـا يذكر الطبرى أن عمر بن الخطاب – رضى الله تعالى عنه – قال: ما هـو إلا أن رأيت أسلم، فأيقنت بالنصر.

ثم أقبل الأنصار من كل جانب يبايعون أبا بكر، وكادوا يطئون سعد ابـن عبادة فقال ناس من أصحاب سعد: اتقوا سعدا لا تطئوه ([2]).

فقال عمر: اقتلوه قتله الله! ثم قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطـأك حتى تندر عضدك، فأخذ سعد بلحية عمر، فقال: والله لو حصصت منه شعره مـا رجعت وفى فيك واضحة (الأسنان التى تبدو عند الضحك) فقال أبو بكر: مـهلا يا عمر! الرفق ها هنا أبلغ، فأعرض عنه عمر، قال سعد: أمام الله لـو أن بـى قـوة ما أقوى على النهوض لسمعت منى فى أقطارها وسككها زئيرا يحجـرك وأصحابك، وأما والله إذا لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع! احملونى مـن هذا المكان، فحملوه فأدخلوه فى داره، ثم يذكر الطبرى أنهم تركوه أياما ثم بعثـوا

([1]) الطبرى: تاريخ الرسل جـ٣ ص ٢٢١.

([2]) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٢٢.

إليه أن أقبل فبايع، فقد بايع الناس وبايع قومك، فقال: أما والله حتى أرميكم بمـــا فى كنانتى من نبلى، وأخضب سنان رمحى وأضربكم بسيفى ما ملكتـــه يـدى، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى، فلا أفعل، وايـــم الله لـــو أن الجـــن اجتمعت لكم مع الإنسان ما بايعتكم حتى أعرض على ربى، واعلم ما حسابى.

فلما أتى أبو بكر بذلك قال له عمر: لا تدعه حتى يبايع، فقال له بشـــير بن سعد: إنه قد لج وأبى، وليس بمبايعكم حتى يقتل، وليس بمقتول حتـــى يقتـل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته، فاتركوه فليس بضاركم، إنما هو رجـل واحد. فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد ([1]).

لكن الطبرى رغم أنه هو الذى ذكر تلك الرواية فإنه يذكر أيضـــا فـــى صفحة سابقة على تلك الرواية أنه لم يتخلف أحد من الأنصار فى ســـقيفة بنـــى ساعدة عن مبايعة أبى بكر ([2]) كما أنه يعود فى الصفحة التالية للصفحـــة التـــى ذكر فيها رواية امتناع سعد بن عبادة عن مبايعة أبى بكر ويذكر أن ســـعد بـــن عبادة قال يومئذ لأبى بكر: إنكم يا معشر المهاجرين حسدتمونى علـــى الإمـــارة وقومى وأجبرتمونى على البيعة، فرد عليه أبو بكـــر والحـــاضرون: إنـــا لـــو أجبرنـــاك على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت فى ســعة، ولكنـــا أجبرنـــاك على الجماعة، فلا إقالة فيها، لئن نزعت يدا من طاعـــة، أو جماعـــة لنضربـــن الـــذى فيه عيناك ([3]).

([1]) الطبرى: تاريخ الرسل جـ٣ ص ٢٢٢.
([2]) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٠٧.
([3]) المصدر السابق ص ٢٢٣.

نفهم من هذا أن سعد بن عبادة بايع يومئذ أبا بكر ولو مكرهـــا، وبذلــك يكون قد بايع أبا بكر كل الأنصار ولم يتخلف أحد، وهذه هى ما عرفت بالبيعـــة الخاصة.

أما البيعة العامة فيذكر ابن هشام والطبرى أن أنس بن مالك، قال: لمـــا بويع أبو بكر فى السقيفة وكان الغد، جلس أبو بكر عل المنبر، فقام عمر، فتكلـــم قبل أبى بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أيها الناس، إنى قد كنــت قلت لكم أمس مقالة ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله، ولا كـــانت عـــهدا إلـــى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله – صلـــى الله عليه وسلم – سيدبر أمرنا حتى ([1]) يكون آخرنا وإن الله قد أبقى فيكم كتابـــه الذى هدى به رسول الله، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه لــــه، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله، ثانى اثنين إذ هما فـــى الغـــار فقوموا فبايعوا، فبايع الناس أبا بكر بيعة عامة بعد بيعة السقيفة ([2]).

بعد ذلك تكلم أبو بكر فحمد الله، وأثنى عليه بالذى هو أهله، ثم قال: أمـــا بعد أيها الناس، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحســـنت فـــأعينونى، وإن أسأت فقومونى، والصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عنـــدى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحـــــق منه إن شاء الله، لا يدع قوم قط الطاعة إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكـــم يرحمكم الله ([3]).

([1]) لم يذكر فى نسخه ابن هشام كلمة (حتى) وإنما ذكرت كلمة (يقول) جـ٤ ص١٣٢.
([2]) ابن هشام: السيرة الذاتية جـ٤ ص١٣٢ الطبرى: تاريخ الرسل جـ٣ ص٢١٠.
([3]) المصدرين السابقين نفس الصفحات.

وبعد أن قضيت الصلاة قام أبو بكر في الناس خطيبا بعد خطبته الأولـــى فقال: الحمد لله أحمده وأومن بوحدانيته وأســـتعينه علـــى أمركـــم كلــه ســـره وعلانيتـــه، ونعوذ بالله مما يأتى به الليل والنهار، وترتكب عليه السر والجـــهار، وأشهد أن لا إله إلا الله حافظا ونصيرا، وأن محمدا عبده ورسوله بالحق بشـــيرا ونذيرا قدام الساعة، فمن أطاعه رشد، ومن عصاه هلك وشرد فعليكم أيها النـــاس بتقوى الله! فإن أكيس الكيس التقوى، وإن أحمق الحمق الفجور، فـــاتبعوا كتـــاب الله واقبلوا نصيحته، واقتدوا بسنة رسوله وخذوا شريعته فإن الله يقبـــل التوبـــة عـــن عبادة ويعفو عن السيئات، وهو الحكيم العليم، (وهو الذى ينزل الغيث مـــن بعـــد ما قنطوا) واحذروا الخطايا التى لكل بنى آدم فيـــها نصيـــب، وتـــزودوا للآخرة فـــإن المصير إليها قريب، ولكن خيركم من اتبـــع طاعـــة الله واجتنـــب معصيته، فاحذروا يوما لا ينفع فيه من حميم ولا شفيع يطاع، وليعمـــل عـــامل مـــا استطاع من عمل يقربه إلى ربه، واعملوا الخير فإن قليلة كثير نام مبـــارك، واتقوا الله حق تقاته، واحذروا ما حذركم فى كتابه، وتوقوا معصيته خشية مـــن عقابه، فليس فيها رغبة لأحد، استعفوا عما حرم الله وأمـــر باجتنابـــه، وإيـــاكم والمحقرات فإنها تقرب إلى الموجبات، واعملوا قبل أن لا تعملوا، وتوبـــوا مـــن الخطايا التى لا يغسلها إلا الله برحمته، وصلوا على نبيكم كما أمركم ربكم، ثـــم قال: أيها الناس! إن الذى رأيتم منى لم يكن لى حرص على ولايتكـــم، ولكنـــى خفت الفتنة والاختلاف فدخلت فيها، وهأنذا وقد رجع الأمر إلى أحسنه وكفـــى الله تلك الثائرة، وهذا أمركم إليكم تولوا من أحببتم من الناس وأنا أجيبكم على ذلـــك، وأكون كأحدكم. فأجابه الناس: رضينا بك قسما وحظا إذ أنت ثانى اثنيـــن مـــع رسول الله – صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر: اللهم صل على محمد والســـلام

على محمد ورحمة الله وبركاته، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثنى عليك ولا نكفرك، ونؤمن بك ونخلع من يكفرك ([1]).

هل اختلف على بن أبى طالب على مبايعة أبى بكر!؟

اختلفت روايات المؤرخين فى إجماع الصحابة على مبايعة أبى بكر فبينما يورد الطبرى أنه لم يتخلف أحد من الأنصار عن مبايعة أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة، وتتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم ([2]) يذكر اليعقوبى أنه: تخلف عن بيعة أبى بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع على بن أبى طالب، منهم العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسى، وأبو ذر الغفارى، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبى بن كعب ([3]).

ونحن حينما نستعرض أقوال المؤرخين فى قضية مبايعة على بن أبى طالب لأبى بكر فنجدها تنقسم إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: تفيد بأن عليا كان يرى أن أبا بكر أهل للخلافة، ولذلك فإنه لم يتخلف عن البيعة العامة رغم انشغاله والهاشميين بتجهيز رسول الله – صلى الله عليه وسلم.

([1]) ابن حيان: السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، صححه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ص٤٢٥، ٤٢٦.

([2]) اليعقوبى: تاريخ البعقوبى. الجزء الثانى. نشر المكتبة المرتضوية بالنجف ١٣٥٨هـ ص١٠٣.

([3]) الطبرى: تاريخ الرسل جـ ٣ ص ٢٠٩.

أما المجموعة الثانية: فتفيد أن عليا امتنع عن مبايعة أبى بكر فترة من الزمن قدرت بستة أشهر وقيل أنها ٧٥ ليلة من وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأقلها ٤٠ يوما فقط.

وبالنسبة للمجموعة الأولى فيذكر الطبرى: أنه لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر، أقبل أبو سفيان وهو يقول: والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم! يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم! أين المستضعفان! أين الأذلان على والعباس! وقال: أبا حسن! ابسط يدك حتى أبايعك فأبى على عليه وزجره، وقال: إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرا! لا حاجة لنا فى نصيحتك ([1]). كما يذكر الطبرى أن عليا قال أيضا لأبى سفيان: إنا وجدنا أبا بكر لها أهلا ([2]).

وكما تفيدنا النصوص السابقة أن عليا كان يرى أن أبا بكر أهل للخلافة فإن النصوص التالية تفيد أن عليا لم يتخلف عن مبايعة أبى بكر فى البيعة العامة.

عن حبيب بن أبى ثابت، قال: كان على فى بيته إذ أتى فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء، عجلا، كراهية أن يبطئ عنها، حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله، ولزم مجلسه ([3]).

([1]) الطبرى: تاريخ الرسل جـ٣ ص ٢٠٩.
([2]) المصدر السابق ص ٢٠٧.
([3]) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٠٣.

وأخيرا يذكر الطبرى نصا يفيد أيضا أن عليا لم يتخلـــف عـــن البيعـــة العامة، ولكن يفهم من النص أنه جاء مكرها حيث يقول الطبرى: وتخلف علـــى والزبير، واخترط الزبير سيفه، وقال لا أغمده حتى يبايع على، فبلغ ذلك أبا بكـر وعمر، فقال عمر، خذوا سيف الزبير فاضربوا به الحجر. قال: فانطلق إليـــهم عمر، فجاء بهما تعبا، وقال: لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهـــان! فبايعا (1).

أما نصوص المجموعة الثانيـــة: فتنقســـم بدورهـــا إلـــى مجموعتيـــن. المجموعة الأولى منها تصور لنا بداية اختلاف وقع بين فاطمة الزهـــراء وأبـــى بكر الصديق – رضى الله تعالى عنهما – على ميراثها من رسول الله – صلـــى الله عليه وسمل – فيذكر الطبرى: أن فاطمة والعباس أتيـــا أبـــا بكـــر يطالبـــان ميراثهما من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –وهما حينئذ يطالبان أرضه من فدك، وسهمه من خيبر، فقال لهما أبو بكر: أما إنى سمت رســـول الله يقـــول: لا نورث ما تركناه فهو صدقة، وإنما يأكل آل محمد فى هذا المـــال وإنـــى والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه، فهجرته فاطمة فلم تكلمه فـــى ذلـــك حتـــى ماتت(2).

أما الطبرى فيروى رواية قالها رجل للزهرى نصها: أفلم يبايعـــه علـــى ستة أشهر! قال: لا، ولا أحد من بنى هاشم، حتى بايعه علـــى فلمـــا رأى علـــى انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحه أبى بكر، فأرسل إلى أبى بكـــر:

---

(1) الطبرى: تاريخ الرسل جـ٣ ص ٢٠٣.

(2) المصدر السابق جـ٣ ص٢٠٧، ٢٠٨ ابن حبان: السيرة النبوية ص٤٢٩.

أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدة عمـــــر، فقـــال عمر: لا تأتهم وحدك، قال أبو بكر: والله لأتينهم وحدى، وما عسى أن يصنعـــوا بى! قال: فانطلق أبو بكر فدخل على على، وقد جمع بنى هاشم عنده فقام علـــى فحمدا الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإنه لم يمنعنا من أن نبــايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا نرى أن لنـــا فى هذا الأمر حقا، فاستبددتم به علينا.

ثم ذكر قرابته من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلما صمت علـــى تشهد أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد فـــوالله لقرابـــة رسول الله أحب إلى أن أصل من قرابتى، وإنى والله ما ألوت فى هـــذه الأمـــور التى كانت بينى وبينكم غير الخير، ولكنى سمعت رسول الله يقول: لا نورث مـــا تركناه فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد فى هذا المال. وإنى أعوذ بالله ألا أذكـــر أمرا صنعه محمد رسول الله إلا صنعته فيه إن شاء الله، ثم قال على: موعـــدك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس، ثم عذر عليا ببعـــض ما أعتذر ثم قام على فعظم من حق أبى بكر، وذكر فضيلته وسابقته، ثم مضـــى إلى أبى بكر فبايعه (١).

الحق أن النصوص السابقة وإن كانت تفيد تخلف على بن أبى طالب عن مبايعة أبى بكر الصديق بالخلافة فترة من الزمن، إلا أنـــها لا تفيـــد إطلاقـــا أن تخلف على عن المبايعة لأنه كان يرى أنه أحق من أبى بكر بالخلافـــة، وإنمـــا لتمسك أبى بكر بأن كل ما تركه الرسول – صلى الله عليه وسلم – فهو صدقة.

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل جـ٣ ص٢٠٧، ٢٠٩.

أما نصوص المجموعة الثانية: فيذكر ابن سعد أن عليا كان يـــرى أنـــه أحق بنى هاشم بميراثهم من النبى باعتباره زوج السيدة فاطمة الزهـــراء، وأبـــا سبطى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو الذى اعتبره رسول الله بالنسـبة إليه بمنزلة هارون من موسى ([1]).

هذا الكلام الذى ذكره ابن سعد فى طبقاته، وإن كان قد يفيد تلميحـــاً أن عليا كان يرى أنه أحق بالخلافة من أبى بكر، إلا أن النص صراحة لا يفيـــد إلا أن المشكلة لا تتعدى أن تكون مشكلة ميراث.

لكن ابن قتيبة ينفرد بروايتين تتعارضتان تماما مع كل النصوص التـــى سبقت، فيذكر فى الرواية الأولى، أن العباس عم رسول الله – صلـــى الله عليـــه وسلم – أقبل على وطلب منه أن يبسط يده ليبايعه لكن عليا يرفض ويقول: ومـــن يطلب هذا الأمر غيرنا ([2]).

أما الرواية الثانية فيذكر فيها أن على بن أبى طالب امتنع عـــن مبايعـــة أبى بكر هو وجماعة من الهاشمية والزبير بن العوام، وتخلفوا فى بيـــت فاطمـــة الزهراء، فخرج إليهم عمر بن الخطاب فى جماعة من الصحابة وأرغموا بنـــى هاشم والزبير على مبايعة أبى بكر ([3]) ثم استقدم على إلى أبى بكر وطلب منـــه أن يبايعه فامتنع وقال، "أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعـــة

([1]) ابن سعد: الطبقات الكبرى. طبعة ليدن، تحقيق الدكتور سترستين جـ٣ ص٢٤.

([2]) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ١ القاهرة ١٩٣٧ ص٦.

([3]) المصدر السابق. ص ١٤.

لى، أخذتم هذا الحق من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبى - صلـــى الله عليه وسلم - وتأخذونه من أهل البيت غصبا، ألستم زعمتم للأنصـــار أنكـم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقـــادة، وســلموا إليكـم الإمارة فإذا احتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار، نحن أولى برســـول الله حيا وميتا فأنصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبــؤوا بــالظلم وأنتــم تعلمــون. وتدخل بعض الصحابة لإكراه على على مبايعــة أبــى بكــر، فبكـت فاطمــة، وزجــرت أبا بكر وأعلنت سخطها عليه وعلى عمر ([1]).

وهكذا أصبح أبن قتيبة هو الوحيد الذى انفرد برواية صريحة وضعــت على بن أبى طالب موضع الحاسد لأبى بكر على الخلافة، وقد تبع ابــن قتيبـة للأسف عدد كبير ممن نقل عنه خاصة فى عصرنا الحديث دون دراسة متأنيــة للنصوص.

والواقع أن ما رواه ابن قتيبة مردود عليه:

أولاً: لماذا لم يذكر أحد من المؤرخين السابقين عن ابن قتيبة مثل تلـــك الروايات، وخاصة ونحن نعلم أن ابن قتيبة لم يكن شاهد عيان، فقد كـــان بينـــه وبين زمن تلك الأحداث أكثر من قرنين من الزمان.!؟ بل على العكـــس يذكــر مؤرخ من عصر ابن قتيبة وهو الطبرى، أن عليا بن أبى طالب رفض الخلافـــة فى أول الأمر حينما عرضوها عليه، وهذا هو نص ما ذكــره الطــبرى: بقيــت المدينة بعد قتل عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقى بن حرب يلتمسون من يجيبـهم إلى القيام بهذا الأمر فلا يجدونه. يأتى المصريون عليا فيختبـــئ منـــهم ويلـــوذ بحيطان المدينة - أى بساتينها - فإذا لقوه باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم مـــرة

([1]) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـــ١ القاهرة ١٩٣٧ ص١٦، ١٧.

بعد مرة، ويقول الطبرى بعد ذلك: إن الناس أتوا عليا وهو فى ســـوق المدينـــة وقالوا له: إبسط يدك نبايعك قال: لا تعجلوا فأن عمر كان رجـــلا مباركـــا وقـــد أوصى بها شورى فأمهلوا يجتمع الناس ويتشاورون فارتد الناس عن على .. ثـــم يقول الطبرى أيضا: فلما اجتمع أهل المدينة قال لهم أهـــل مصـــر. أنتـــم أهـــل الشورى وأنتم تعقدون الأمامة. فانظروا رجلا منكم تنصبونه ونحن لكن تبع فقال الجمهور على بن أبى طالب. نحن به راضون، فقال على: دعونـــى والتمســـوا غيرى، فقالوا: ننشدك الله: ألا ترى الفتنة؟! ألا تخاف الله؟! فقـــال: إن أجبتكـــم ركبت به ما أعلم، وأن تركتمونى فإنمـــا أنا كأحدكم، إلا أنى أسمعكم وأطوعكـــم لمن وليتموه أمركم، ثم افترقوا على ذلك".

ثانياً: لماذا لم يصعد على بن أبى طالب المشكلة مرة أخرى عند توليـــه عمر بن الخطاب، وأيضا عند توليه عثمان ما دام أنه كان يـــرى أنـــه الأحـــق بالخلافة من أبى بكر كما أدعى ابن قتيبة!؟.

ثالثاً: هل أخطأ الصحابة - رضى الله تعـــالى عنـــهم جميعـــاً - حينمـــا بايعـــوا أبا بكر بالخلافة بالإجماع!؟ وإذا كان الإجماع مرفوض عـــن الشـــيعة، وأنه ليس من مصادر التشريع الإسلامى عندهم، فهل كان هذا هو الـــهدف مـــن دس ما يفيـــد هذا فى كتب التاريخ!؟

فى الواقع إننى شخصيا لم أجد مبررا لما جـــاء فـــى كتـــاب الامامـــة والسياسة المنسوب لابن قتيبة إلا ميولا شيعية لابن قتيبة، أو أن كتاب الامامـــة والسياسة كتاب مدسوس.

القضيـــة الثانية

تفسير حركة الفتوح الإسلامية

تباينت آراء الباحثين حول حركة الفتوح الإسلامية، فبينمـــا يـــدور رأى فريق فى أنها كانت اندفاعه دينية استهدفت نشر الإســـلام ولـــو بحـــد الســـيف. يـــدور رأى فريق أخر فى أن حركة الفتوح الإسلامية كانت بدافـــع اقتصـــادى. استهدف الاستيلاء على خيرات البلاد المفتوحة.

لذلك كنا نحن المسلمون أحوج ما نكون إلى تفسير يســـتند إلـــى الدليـــل العلمى لحركة الفتوح الإسلامية لعلنا نستطيع أن نصحح فهما خاطئا وقـــع فيـــه كثيرون، حتى من المسلمين أنفسهم رددوه فى الكتب الدراسية.

وقبل أن نتعرض إلى التفسير العلمى لحركة الفتوح الإسلامية ســـنحاول بداية مناقشة الآراء التى اتفق عليها كل من الفريقين فى أنها أهم أسباب حركـــة الفتوح الإسلامية.

أولاً: نشر الإسلام بحد السيف

للأسف فقد خلط معظم من كتبوا فى هذا الموضوع بين عالمية الدعـــوة الإسلامية، وبين نشر الإسلام بحد السيف. الأمر الذى يجعلنا أن نحتكـــم إلـــى الشريعة الإسلامية لنتعرف على مشروعية القتال فى الإسلام. قبل أن نتعـــرض للأسباب الحقيقية التى كانت وراء الأحداث.

القتال فى التشريع الإسلامى

السلام هو الأصل فى العلاقات بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمـــم التى تخالفها فى العقيدة حتى فى حالة الحرب فالنصوص القرآنية تأتى حريصـــة على حرمة المجتمعات وكرامتها، فيقول سبحانه: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لـــها

وتوكل على الله" وجمهور الفقهاء يرى أنه يحرم حمل الكفار على الإيمان بحـــد السيف ويستدلون على هذا الحكم من القرآن الكريم بقوله تعالى:

"لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى". ([1])

"أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين". ([2])

"فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكـــم عليـــهم سبيلاً". ([3])

كما ثبت بالنص والاجماع أن أهل الكتاب إذا أدوا الجزية حرم قتالـــهم، وكذلك المجوس مع أنهم ليسوا أهل كتاب. وفى هذا الدليـــل القـــاطع علـــى أن حركة الفتوح الإسلامية لم تكن لنشر الإسلام بحـــد الســـيف. وإلا فلمـــاذا قبـــل المسلمون الجزية ممن رفضوا اعتناق الإسلام!؟.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله" فإن جميع العلماء متفقون على أن المراد بالناس فـــى هـــذا النـــص مشركوا العرب خاصة، وغيرهم من أهل الكتاب، ومشركى غير العرب حكمـــهم يخالف أولئك الذين قيل فى حقهم هذا الحديث، ذلك لأن قتال مشركى العرب كان لدفع شرهم الذى بدأ فى توالى المؤمرات، ومداومة الكيد للدعـــوة، ومحـــاولات تحطيم القوة الإسلامية والقضاء عليها، فقتال هؤلاء لدفع الشر لا للدعوة.

ونجد ما يؤكد ذلك فيما كان من أحد رؤساء الدول الذين كاتبهم الرســـول صلى الله عليه وسلم، وحملهم مسئولية إبلاغ الدعوة لشعوبهم، وهو كسرى الـــذى مزق كتاب الرسول، وكان المسلمون آنئذ على مستوى مـــن القـــوة يتيـــح لـــهم

([1]) ٢٥٦/ البقرة.

([2]) ٩٩/ يونس.

([3]) النساء.

التصرف العسكرى، ومع ذلك لم يكن من الرسول الكريم سوى التمسك بالمسالمة، وأداء واجب البلاغ، فلم يجاوز ذلك. وقد كانت له مندوحة فى المجاوزة بيد أنه لم يفعل.

أما الباعث على قتال الكفار عند جمهور الفقهاء فهو دفع عدوانهم وقمع الفتنة. ويستدلون على هذا الحكم من القرآن الكريم فى قوله تعالى: (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا). [١]

وقوله تعالى:

(واقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين). [٢]

وقوله تعالى:

(واقتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة). [٣]

(فمن اعتدى عليكم فأعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم). [٤]

وقوله تعالى:

(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خبير للصابرين). [٥]

وفى فصل من رسالة ابن تيمية عن القتال بحث فيه الباعث على القتال، أهو اعتداء الكفار على الإسلام ورد عدوانهم؟ أم الباعث على قتال الكفار كفرهم؟ ذكر إبن تيمية أنه ذهب قلة من الشافعية إلى أن الباعث على قتال الكفار هو كفرهم والتمكين للدعوة الإسلامية التى هى أمانة فى عنق المسلمين

---

(١) ١٩٠/ البقرة.

(٢) ١٩٣/ البقرة.

(٣) ٣٦/ التوبة.

(٤) ١٩٤/ البقرة.

(٥) ١٢٦/ النحل.

إذ إن عليهم الدعوة إلى الإسلام حتى تكون كلمة الله هى العليا. لكن ابن تيميـــة يميل إلى الرأى الذى إنتهى إليه جمهور الفقهاء وهو أن الباعث على القتال هـــو رد عدوان الكفار وليس كفرهم. (١)

ونخلص من هذا كله إلى أن القتال فى التشريع الإسلامى منهج وليـــس ضرورة، إنما هو منهج يستخدم عند الضرورة التى تجعله وحدة هـــو الوســيلة لإقرار السلام. ويمكن حصر بواعث القتال فيما يلى:

١ – يستخدم القتال ردا للعدوان مثل ما حدث فى غزوة بدر، وأحد والخندق.
٢ – يستخدم القتال دفعاً لهجوم متوقع يعده الأعداء وذلك مثلما حدث فى غـــزوة بنى المصطلق، وغزوة حنين وحصار الطائف.
٣ – يستخدم القتال ضد من ينقض المعاهدات مثل ما حدث مـــع بنـــى قينقـــاع، وبنـــى النضير وبنى قريظة، وفتح مكة.
٤ – يستخدم القتال لتأمين المسلمين إذا تعرض لهم من يفتنهم عن دينهم.

ثانياً: دوافع اقتصاديـــة

يرى فريق من المؤرخين أن حركة الفتوح الإسلامية لا تعدو أن تكـــون حلقة فى سلسلة الهجرات التى خرجت من شبة الجزيرة العربية منـــذ العصـــور القديمة متجهة نحو بلاد الهلال الخصيب. ذلك أنه من الثابت علميـــا أن شـــبة الجزيرة العربية تعرض فى التاريخ القديم لأدوار متعاقبة من الجفاف والمطـــر. وفى عصور الجفاف كانت تندفع هجرات من قلب شبة الجزيـــرة إلـــى الشـــمال

(١) الدكتورة: نادية حسنى صقر: فلسفة الحرب فـــى الإســـلام. المجلـــس الأعلـــى للشـــئون الإسلامية. القاهرة ١٤١٠هـــ – ١٩٩٠م. ص٩٥-٩٧.

والتى أدت إلى استقرار الأكديين فى العراق فى القرن الثلاثين قبل الميلاد، والأموريين فى بابل فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، والفنيقيين فى الساحل اللبنانى فيما يقرب من ١٦٠٠ ق.م وغير ذلك من الهجرات. ولذا عمد هذا الفريق من المؤرخين على الربط بين حركة الفتوح الإسلامية فى القرن السابع للميلاد، وتلك الهجرات التى خرجت من شبة الجزيرة فى العصور القديمة، فوصفوا حركة الفتوح الإسلامية بأنها حلقة فى سلسلة تلك الهجرات. وبالتالى فإن مؤرخا مثل بيكر Becker لم يتردد فى القول بأن حركة الفتوح الإسلامية فى القرن السابع للميلاد ليست مفاجئة – كما تبدو – وإنما هى حلقة أخيرة فى سلسلة طويلة. بدأت قبل ذلك بعدة قرون، وأدت إلى خروج كثير من الهجرات السامية من قلب شبة الجزيرة العربية نتيجة لتقلب الأحوال الاقتصادية فيها وما أصاب البلاد نتيجة لذلك من ضعف وتدهور، يدل عليه انهيار سد مأرب، وبعبارة أخرى فإن تعرض شبة الجزيرة العربية لأزمات اقتصادية هو الذى دفع شعوبها السامية إلى الهجرة، لا فرق فى ذلك بين الهجرات السابقة التى قام بها الأراميون، والكنعانيون، وبين الهجرات اللاحقة التى قامت بها بعض القبائل العربية قبل ظهور الإسلام ([1]).

ويميل برنارد لويس إلى مشاركة بيكر هذا الرأى، فيقول: أن بلاد العرب شهدت فى قديم الزمان خصبا عظيما أعقبه جفاف مستمر، مما أدى إلى زحف الصحراء على حساب الأراضى الخضراء، فأخذ سكان البلاد يخرجون منها على شكل هجرات، بعد أن ضاقت سبل العيش فى وجوههم ([2]).

([1]) Cambridge Mediaeval History, Vol. 2; p. 331 (C.H.Beker) (Cambridge, 1963).

([2]) برنارد لويس:العرب فى التاريخ (بيروت، ١٩٥٤) ص٢٨، ٥٧.

إلى هنا نحن لا نختلف مع من يقول أن شبة الجزيرة العربية أنـــها فـــي كثير من الأحيان كانت طاردة لسكانها، لكننا نختلف مع مـــن يقـــول أن حركـــة الفتوح الإسلامية لا تعدو أن تكون حلقة في سلسلة الهجرات التي خرجـــت مـــن شبة الجزيرة متجهة نحو البلاد الأكثر خصبا دون أن يستند في قوله هذا علـــــى الدليل العلمي.

أما توماس أرنولد فيعبر عن هذه الفكرة تعبيرا اكـــثر جـــرأة وأوضـــح صراحة حين يقول: أن حركة التوسع العربي كانت هجرة جماعية نشطة، دفعـــها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح بلادا أكـــثر خصبـــا، وكانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا ([1]).

ويستند أصحاب هذا الرأي ومنهم كيتاني وســـبرنجر وونكلـــر وبيكـــر والأب لامنس وأرنولد وبرنارلويس وفيليب حتي – لتدعيم الدافع الاقتصادي إلى ثلاث نصوص تاريخية ([2]) أورد البلاذري اثنين منها والطبري أورد منها نصـــا واحدا. فيذكر البلاذري في النص الأول أن أبا بكر إذ أخذ في إعـــداد الجيـــوش الإسلامية وتسييرها إلى الشام (كتب إلى أهل مكة والطـــائف واليمـــن وجميـــع العرب بنجد والحجاز، يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم، فســـارع الناس إليه بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب) ([3]).

([1]) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام (الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٥٧) ص٦٤.
([2]) دكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية. دار النهضة العربية. بيروت ص٤٥٤.
([3]) البلاذري: فتوح البلدان جـ١ ص١٢٨.

أما النص الثانى للبلاذرى فهو جملة وجهها القائد الفارسى رستم إلى المغيرة بن شعبة رسول سعد بن أبى وقاص نصها: (قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون) ([1]).

ويذكر الطبرى عند حديثه عن موقعة الولجة التى دارت بين خالد بن الوليد والأندرزغر الفارسى نصا جاء فى خطبة ألقاها خالد فى المسلمين ليرغبهم فى بلاد العجم ويزهدهم فى بلاد العرب، فقال: (ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل، ولو لم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولى الجوع والإقلال من تولاه من أثاقل عما أنتم عليه) ([2]).

فى الواقع أن النصوص التاريخية التى استند عليها أصحاب نظرية الدافع الاقتصادى فهى نصوص لا تخدم قضيتهم من قريب أو بعيد بل على العكس فهى تدحض هذه النظرية من أساسها !!

إن الذى أورده البلاذرى لا يدعم نظرية الدافع الاقتصادى بقدر ما يؤكد أن حركة الفتوح الإسلامية ليست هجرة جماعية إلى بلاد أكثر خصباً حيث يفيد النص الأول الذى أورده البلاذرى أن أبا بكر كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز (يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه). فأين هو تطلعهم إلى التوسع ورغد العيش والرغبة فى الهجرة الجماعية!؟

([1]) البلاذرى: جـ٢ ص٣١٥.

([2]) الطبرى: تاريخ الرسل جـ ٤ ص٩.

كذلك الحال بالنسبة للنص الثانى الذى أورده البلاذرى فإنه لا يدعم نظرية الدافع الاقتصادى بقدر ما يدحضه. فلو كان ما علمه القائد الفارسى رستم هو الحق لقبل المغيرة بن شعبة رسول سعد بن أبى وقاص التفاوض بناءا على قول رستم (ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون).

أما النص الذى أورده الطبرى فإننى لا أرى فيه أى تدعيم لنظرية الدافع الاقتصادى من قريب أو من بعيد أيضا بل على العكس تماما منه يقرر فى صراحة تامة (لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ولو لم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف) فالمسلمين إذن لم يخرجوا طلبا لسعة العيش، وإنما خرجوا للجهاد فى الله رغم الجوع والإقلال الذى هم عليه.

وها هو أبو بكر – رضى الله تعالى عنه – كان قبل أن يشتغل بأمور المسلمين تاجرا وبعد ستة أشهر من توليه الخلافة قال: لا والله، ما تصلح أمور الناس والتجارة، وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم، ولا بد لعيالى مما يصلحهم. فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوما بيوم، ويحج ويعتمر. وكان الذى فرضوه له فى كل سنة ستة آلاف درهم، فلما حضرته الوفاة، قال: ردوا ما عندنا من مال المسلمين، فإنى لا أصيب من هذا المال شيئا، وإن أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم، فدفع ذلك إلى عمر، ولقوحا وعبدا صيقلا، وقطيفة ما تساوى خمسة دراهم، فقال عمر: لقد أتعب من بعده ([1]).

([1]) الطبرى: تاريخ الرسل ص٤٣١-٤٣٣.

التفســير العلمى لحركة الفتوح الإسلامية

كان من أهم ما ترتب عليه صلح الحديبية فى العام السادس من الــهجرة أن أصبح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شخصية اعتبارية فــى الحجــاز، لذلك رأى الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه قد حان الوقت ليخرج بــالدعوة الإسلامية خارج الحجاز تحقيقا لمبدأ عالمية الدعوة الإسلامية.

(أ) كتب الرسول إلى أمراء العرب

كان من بين أمراء العرب الذين أرسل إليهم الرسول كتبا يدعوهم فيــها إلى الإسلام، المنذر بن ساوى أمير البحرين، فقد بعث إليه الرسول كتابــا مــع العلاء بن الحضرمى، فكتب إليه المنذر بإسلامه وقال: فأنى قرأت كتابك علــى أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم مــن كرهــه، وبأرضى يهود ومجوس، فأحدث إلى فى ذلك أمرك. فكتب إليه الرسول: "بســم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، ســلام عليكــم، فأنى أحمد إليك الله الذى لا إليه إلا هو، وأشــهد أن لا إلــه إلا الله وأن محمــدا رسول الله، أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل فإن من ينصح فإنما ينصح لنفســه، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصــح لــى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا، وإنى قد شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين مــا أسلموا عليه. وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مــهما تصلــح فلــن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية [1].

---

[1] النبهانى: الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص١٦٩-١٩٠.

وكتب الرسول إلى أميرى عمان: جيفر وعباد ابنى الجلندى - وهما من الأزد - كتابا بعثه مع عمرو بن العاص فى ذى القعدة سنة ثمان ([1]). وجاء فيه "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعو كما دعا به الإسلام أسلما تسلما، فإنى سول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن ابيتما أن تقرأ بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكم وتظهر نبوتى على ملككما ([2]) "فأجابا إلى الإسلام وصدقا بالنبى ([3]).

وبعث الرسول سليط بن عمر العامرى إلى هوذة بن على الحفنى وإلى ثمامة ابن أثال أميرى اليمامة يدعموهما إلى الإسلام، فلم يجيبا دعوته ([4]).

وكتب الرسول إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق كتابا بعثه مع شجاع بن وهب ([5])، جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده، لا شريك له يبقى لك ملكك". فلما أتاه الكتاب، قال: من ينزع منى ملكى، أنا سائر إليه (أى محاربة) ولم يسلم. فقال الرسول: باد وباد ملكه.

([1]) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٢ ص٢٧.
([2]) النهانى: الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص١٧٠.
([3]) ابن سعد: المصدر السابق ج٢ ص٢٧.
([4]) ابن هشام: ج٤ ص٢٨٩، ابن سعد ج٢ ص٢٩.
([5]) الطبرى: ج٢ ص٢٩٤.

كذلك بعث الرسول الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى صاحب بصرى، فلما نزل مؤته ([1]) اعترضه شر حبيل بن عمرو الغسانى وقتله ([2]).

وكذلك حينما أرسل الرسول – صلى الله عليه وسلم– وفدا إلى ذات الطلح – على مقربة من الشام – ليدعوهم إلى الإسلام وكان عدتهم خمسة عشر رجلا، قتلوهم جميعا إلا رئيسهم وقد أبقوا عليه عمدا ليخبر رسول الله بما رآه عند عودته إليه.

وكتب الرسول إلى بعض أمراء اليمن، منهم الحارث بن عبد كلال الحميرى وشريح بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال. ونعمان قيل ذى يزن ومعافر وهمدان، وزرعة ذى رعين يدعوهم إلى الإسلام، وأمرهم أن يؤدوا الصدقة والجزية لمعاذ بن جبل ومالك بن مرارة وأوصاهم بهما خيرا، فبعث إليه مالك بن مرارة يخبره إسلامهم ودخولهم طاعته ([3]).

(ب) كتب الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة

كذلك وجه الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المجاورة لجزيرة العرب كتبا مؤداها الترغيب فى الدخول فى الدين الإسلامى، ولم يطلب منهم الخضوع لسلطانه. فأوفد عمرو بن أمية الضمرى إلى نجاشى الحبشة، وبعث معه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام. فكتب إليه النجاشى رسالة يخبره فيها بقوله دعوته وتصديقه إياها ([4]).

([1]) مؤته: قرية منقرى البلقاء فى حدود الشام، ياقوت: معجم البلدان ج٨ ص١٩٠.
([2]) النبهانى، الأنوار المحمدية ص١٠٣، المقريزى، إمتاع الأسماع ج١ ص٣٤٥.
([3]) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٢ ص٢٩.
([4]) المصدر السابق: ج٢ ص٢٣.

أما هرقل قيصر الروم، فبعث إليه الرسول كتابا مع دحيـــة بـــن خليفـــة الكلبى، جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رســـول الله إلـــى هرقـــل عظيـــم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أمـــا بعـــد، فـــأنى أدعـــوك بدعايـــة الإســـلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن أبيت عليك اثم الأريســـيين(١). ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشـــرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولـــوا فقولوا اشـــــهدوا بأنا مسلمون (٢) فقبل هرقل كتاب الرسول وكتب إليه. "إلى أحمـــد رســـول الله الذى بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم، أنه جائنى كتابك مع رسولك، وأنـــى أشهد أنك رسول الله". نجدك عندنا فى الإنجيل، بشرنا بك عيسى ابـــن مريـــم، وأنى دعوت الروم أن يؤمنوا بك، فأبوا، ولو أطاعونى لكان خيرا لهم ولـــوددت أنى عندك فأخدمك وأغسل قدميك (٣).

وبعث الرسول إلى كسرى فارس كتابا مع عبد الله بن حذافـــه الســـهمى يدعوه فيه إلى اعتناق الإسلام. قال فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم" من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فـــارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا ألـــه لا الله وحـــده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله عز وجل فإنى رســـول الله إلى الناس كلهم لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، أســـلم تســـلم، فإن توليت فعليك إثم المجوس"، فلما قرئ عليه الكتاب مزقه فبلغ ذلك رســـول الله صلى الله عليه وسلم فقال: مزق الله ملكه (٤).

---

(١) أى فإن عليك مع إثم الأتباع والأريس = الفلاح.
(٢) النبهانى: الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص١٦٦.
(٣) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى ج٢ ص٦٢.
(٤) الطبرى: ج٢ ص٢٩٦، المقريزى: إمتاع الأسماع ج١ ص٣٠٩، النبهانى، ص١٦٦.

كذلك وجه الرسول إلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل امبراطور الروم كتابا مع حاطب بن أبى بلتعة، جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك اثم القبط، ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون". فأحسن المقوقس استقبال رسول النبى وقبل كتابه وأجابه بقوله: "كنت أعلم أن نبيا قد بقى، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام – وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله – فأراه قد خرج فى العرب فى أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعنى فى اتباعه، ولا أحب أن يعلم بمحاورياتى إياك"(١)، وبعث معه بهدية إلى النبى – صلى الله عليه وسلم (٢).

وهكذا لم يترتب على كتب الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى ملوك ورؤساء الدول أى مشاكل تستحق من الرسول وقفة حاسمة إلا ما حدث فى منطقة الشام. فقد أشفق النبى – صلى الله عليه وسلم – على عاقبة السكوت على كلتا الفعلتين التى قتل فيهما رسله إلى الشام ورأى أن يقتص لأصحابه، وحتى لا تضعف هيبة الإسلام (٣).

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ج٣ ص٤٧.

(٢) المقريزى: إمتاع الأسماع ج١ ص١٠٨.

(٣) الدكتورة ليلى عبد الجواد إسماعيل: الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل ص ٣٤٦.

الفتــوحات فى الجناح الشــرقى

فتــح الشــام

وقع اختيار الرسول على مولاه زيد بن حارثه الكلبى ليكون أمير الجيش وأوصى فى حالة موته أن يخلفه جعفر بن أبى طالب، وإذا قتل جعفر حل محلــه عبد الله بن رواحة الأنصارى، وإن أصيب عبد الله بسوء، فليتفــق المســلمون على إسناد إمارة الجيش لرجل منهم (١) فخرج هؤلاء الأمراء إلى مؤتــه فــى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، على رأس جيش بلغــت عدتــه ثلاثــة آلاف، وشيعهم رسول الله إلى ثنية الوداع (٢)، وأوصى أمراء الجيش بقولــه (٣) وأوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا باسم الله فى ســبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيتم عدوكــم من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث، فأيتهن ما أجابوك إليها، فــأقبل منــهم واكفف عنهم، ادعهم إلى الدخول فى الإسلام، فإن فعلوا فــأقبل منــهم واكفــف عنهم، ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فــأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين وإن دخلوا فى الإسلام واختاروا دارهــم فــأخبرهم أنــهم يكونون كأعراب المسلمين، ويجرى عليهم حكم الله ولا يكون لهم فى الفــئ ولا فى الغنيمة شئ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبــوا فادعــهم إلــى إعطــاء الجزية، فإن فعلوا فأقبل منهم واكفف عنهم، فإن أبو فاستعن بالله وقاتلهم...".

---

(١) اليعقوبى ج٢ ص٤٩.

(٢) ثنية مشرفة على المدنية. يطؤها من يريد مكة، وكان النــاس فــى الجاهليــة يودعــون المسافرين من هذا المكان. ولذا عرف بثينة الوداع. "أنظر ياقوت معجم البلدان".

(٣) المقريزى. إمتاع الأسماع ص٣٤٤-٣٤٦.

وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله، فلا تستنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم علـــى حكمـــك، فـــإنك لا تـــدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك علـــى أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، ولكـــن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإن تخفروا ([1]) ذمتكم. وذمة آبائكم خـــير لكـــم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله".

"وستجدون رجالا فى الصوامع معتزلين للناس، فـــلا تتعرضـــوا لـــهم، وستجدون آخرين فى رءوسهم مفاحص ([2])، فاقلعوها بالسيوف، لا تقتلن امـــرأة ولا صغيرا ضرعا ([3]). ولا كبيرا فانيا، ولا تغرقن نخلا، ولا تقلعن شـــجرا، ولا تهدموا بيتا".

ولما فرغ الرسول من نصيحته لأمراء الجيش، قال لـــه عبـــد الله بـــن رواحه: يا رسول الله: مرنى بشئ أحفظه عنك، قال: إنك قادم غدا بلدا، الســـجود فيه قليل، فأكثر السجود، قال: زدنى يا رسول الله، قال: أذكر الله فإنه عون لـــك على ما تطلب".

سار جيش المسلمين إلى تخوم البلقاء. وكانت موطن نفوذ الغساســـنة - ولما وصلوا إلى بلدة معان، بلغهم أن هرقل نزل بمكان يقال له مآب فـــى مائـــة

([1]) أى تنقضوا ذمتكم ولا توفروا بها.

([2]) المقصود بذلك أن الشيطان استوطن فى رؤوسهم، فجعل له فيها كمفاحص الطير، فألزمهم شدة البغى "انظر كتاب إمتاع الأسماع، حاشية رقم ٢ ص٣٤٦.

([3]) الضرع: الصغير السن.

ألف من الروم ومعه من قبائل بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام مائة ألف، يتولى قيادتهم رجل من قبيلة بلى يقال له مالك بن رافلة ([1])، فأخذوا يفكرون فى الأمر وأرادوا أن يكتبوا إلى الرسول بكثرة عدد العدو ليبعث إليهم مددا أو يأمرهم بالعودة إلى المدينة. فشجعهم عبد الله بن رواحه على المضى فى القتال وقال: "والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ولا بكثرة خيول إلا بهذا الدين الذى أكرمه الله به، انطلقوا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد فإنما هى إحدى الحسنيين، إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعد نبينا وليس لوعده خلف، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان ([2])، فتغلب على المسلمين الحماسة الدينية وعزموا على المضى فى سيرهم، فمضوا إلى بلدة مؤته حيث وافاهم المشركون معهم ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح والديباج والحرير والذهب ([3]). ثم دار القتال بين الفريقين، فأخذ زيد بن حارثة اللواء وظل يقاتل حتى قتل، فخلفه جعفر بن أبى طالب فى الإمارة. غير أنه لم يلبث أن استشهد فى ميدان القتال وخلفه عبد الله بن رواحه فقتل ([4])، ثم ولى المسلمون عليهم خالد بن الوليد ([5]). فبذل جهده فى إنقاذ بقية جند المسلمين وعاد بهم إلى المدينة فقابلهم أهلها بشئ من السخط. غير أن الرسول لم ينظر إلى حادث انهزامهم هذه النظرة، بل أظهر أمله فى عودتهم لمهاجمة العدو وإحراز النصر عليه.

([1]) المقريزى: إمتاع الأسماع ج١ ص٣٤٧.

([2]) المصدر السابق ج١ ص٣٤٨.

([3]) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ص١٧٥.

([4]) ابن هشام: ج٢ ص٤٣٣-٤٣٥.

([5]) ابن سعد: ج٣ ص١٧٥: الطبرى. ج٢ ص٢٢.

وقد رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقضى على الآثار التى خلفتها عزوة مؤته ويقوم بعمل حاسم يحول دون حدوث أى تهديد من قبل الروم، فلما تم له فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة وانصرف عائدا إلى المدينة، بلغه أن الروم جمعت جموعا كثيرة بالشام وضموا إليهم لخم وجذام وغسان وعاملة ([1])، فبعث إلى القبائل ورؤساء العشائر يحثهم على الخروج ويرغبهم فى الجهاد ([2])، كما حض الرسول المسلمين على بذل المال فى سبيل الله ([3])، فسارعوا إلى تلبية طلبه. فجاء أبو بكر الصديق بكل ماله، - وهو أربعة آلاف درهم، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، كما حمل إليه كل من العباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمه مالا وفيرا. وكان عثمان بن عفان من أكثرهم نفقة، إذ جهز ثلث الجيش ([4]). كذلك أقبل أهل الغنى من الرجال والنساء على التبرع ببعض أموالهم.

وكانت حرارة الصيف وقتذاك شديدة، والثمار قد طابت، ويؤثر الناس البقاء بجوار ثمارهم ([5]). فلما دعا الرسول المسلمين إلى التهيؤ للغزو وجد تثاقلا من بعضهم، فاعتذر جماعة بأعذار واهية منها: مشاق السفر ومتاعبه وشدة الحر، كما جاءه فريق من المنافقين يستأذنونه فى التخلف عن القتال دون أن يكون بهم علة يشكون منها، وتشير إلى ذلك هذه الآيات فى سورة التوبة.

([1]) ابن سعد: ج٣ ص١٧٥: الطبرى. ج٢ ص٢٢.

([2]) اليعقوبى: ج٣ ص٥١.

([3]) ابن هشام: ج٤ ص١٧٢.

([4]) أنظر: النبهانى: الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص١٢٧.

([5]) المقريزى: إمتاع الأسماع ج١ ص٤٤٦-٤٤٧.

(يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثـــاقلتم إلـــى الأرض. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخــــرة إلا قليل) (آية ٣٨).

(لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشـــقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفســـهم والله يعلهـــم إنـــهم لكاذبون) (أية ٤٢، ٤٣).

(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالـــهم وأنفسهم فى سبيل الله، وقالوا لا تنفروا فى الحر، قل نار جهنم أشد حرا لو كـانوا يفقهون) (آية ٨١).

(إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) (آية ٤٥).

(وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورســوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) (آية ٩٠).

ولما تغلب الرسول على الصعاب التى لاقاها فى سبيل إعـــداد الجيـــش، اعتزم المسير إلى حدود بلاد العرب الشمالية، فخرج ومعه ثلاثون ألفا فـــى أول رجب سنة تسع، وكان عبد الله بن أبى بن سلول إذا ذاك قد عسكر مع أنصــــاره خارج المدينة بثنية الوداع وأخذ يثبط عزائمهم بادعائه أن المســـلمين لا محالـــة منهزمون إذا ما وقفوا أمام الروم، ثم ما لبث أن تخلف عن النبى هـــو وأتباعـــه وعادوا إلى المدينة ([1]).

([1]) المقريزى: إمتاع الأسماع ج١ ص٤٥٥.

لم يبال الرسول بتخلف هؤلاء المنافقين ومضى فى سيره حتـــى وصـــل تبوك ([1])، فحط بها رحلة وصالحة أهلها على الجزية ([2])، ثم شاور أصحابه فـى التقدم شمالا والسير إلى حدود الشام، فقال له عمر بن الخطاب، إن كنت أمــرت بالسير فسر، فقال الرســول صلى الله عليه وسلم: لو أمرت به مـــا استشـــرتكم فيه، فقال له أصحابه: يا رســول الله، إن للروم جموعا كثيرة، وليس بـــها أحـد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هـذه السنة حتى ترى أو يحدث الله فى ذلك أمرا ([3])، فاكتفى الرسول بإيفـــاد بعـض سراياه إلى الجهات المجاورة لتبوك.

وكان الرسول قد وجه رسالة إلى أحد الأمراء المقيمين علـــى الحـدود الشمالية ويدعى يحنة بن رؤية - صاحب أيلة - يطلب إليه فيها إمـــا أن يعلـن إسلامه أو يؤدى إليه الجزية ([4])، فأقبل عليه هذا الأمير - بعد وصوله إلى تبـوك - ومعه أهل جرباء ([5]) وأذرج وبعض أهل الشام واليمن، فصالحـــهم وفـرض عليهم جزية معينة، وكان بأيلة ثلاثمائة رجل، فقرر عليهم ثلاثمائة دينار، وكتـب ليحنة بن رؤية هذا الكتاب ([6]) بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله ومحمـد النبى رسول الله ليحنة بن رؤية وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم فى البر، لهم ذمـــة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهـــل البحـــر،

([1]) تقع على بعد إثنى عشر فرسخا من المدينة.

([2]) البلاذرى: فتوح البلدان ص٧١.

([3]) المقريزى: إمتاع الأسماع ج١ ص٤٦٣.

([4]) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٢ ص٤٢.

([5]) جرباء: موضع من أعمال عمان بالبلقاء. ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص٧٢.

([6]) أذرح: بلد فى أطراف الشام من نواحى البلقاء وعمان مجاورة لأراضى الحجاز (ياقوت).

فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخـــذه مـــن الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر.

وكتب لأهل جرباء ([١]): (كتاب من محمد النبى رسول الله، أنهم آمنـــون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافيـــة طيبـــة، والله كفيل عليهم).

وكتب لأهل أذرح ([٢]): (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمـــد النبى لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله ومحمد، وأن عليهم مائة دينار فـــى كـــل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين، من لجـــأ إليـــهم من المسلمين من المخالفة والتعزير ([٣]) إذا خشوا على المسلمين وهـــم آمنـــون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه).

وكتب لأهل مقنا ([٤]) – وكانوا يهودا ([٥]) (أنهم آمنون بأمان الله وأمـــان محمد وأن عليهم ربع غزوهم وربع ثمارهم).

كذلك رأى الرسول أثناء إقامته بتبوك أن يبعث خالد بن الوليد إلى دومـــة الجندل ([٦]) على رأس حملة، خشية خروج ملكها أكيدر بن عبد الملك ومعاونتـــه

([١]) المقريزى: المصدر السابق ج١ ص٤٦٨.

([٢]) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٢ ص٦٥، المقريزى إمتاع الأسماع ص٤٦٩.

([٣]) التعزيز: النصرة بالسيف - حاشية رام ٥ إمتاع الأسماع ص٤٦٩.

([٤]) مقنا: تقع على مقربة من أبلة "ابن سعد ج٢ ص٥٤١.

([٥]) ابن سعد: ج٢ ص٤١، ٥٦.

([٦]) دومة الجندل: واحة خصبة، يقيم بها بطون كندة، تقع شمال المدينة على بعد خمسة عشر ليلة.

جيوش الروم إذا ما أتت من ناحيته وتحقيقا لسياسته التى ترمى إلى تأمين شـمال الحجاز، وكان أكيدر من كندة يدين بالنصرانية فأمر الرسول خالد بن الوليد بـأن يأتى به إليه، ونهاه عن قتله فسار إليه خال وقبض عليه ([1])، وأظهر اسـتعداده ليجيره من القتل حتى يأتى به الرسول على أن يفتح له دومة الجندل، فقبل أكيـدر وفتحت أبواب دومة للمسلمين بعد أن تم الصلح بين خالد وأكيدر عل أن يـنزل هذا الأخير للمسلمين عن ألفى بير، وثمانمائة رأس وأربعمائـة درع وأربعمائـة رمح ثم قدم خالد بأكيدر على الرسول بالمدينة ([2])، فصالحه الرسول علـى أداء الجزية وأخلى سبيله ([3])، وكتب له ولأهل دومة كتابا، وفيما يلى نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر. حيـن أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد ([4]) والأصنام مع خالد بن الوليد سـيف الله فـى دومة الجنـدل وأكنافـها: أن لـه الضاحيـة ([5]) مـن الضحـل ([6]) والبـور، والمعامى([7])، وأغفال ([8]) الأرض، والحلقة، والسلاح، والحافر والحصن، ولكـم الضامنـة ([9]) من النخل، والمعين ([10]) مـن المعمـور بعـد الخمـس، لا

([1]) الطبرى: ج٢ ص٣٧٢ - ٣٧٣.
([2]) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ص٢١٩ - ٢٢٠ والمقريزى. إمتاع الأسماع ج١ ص٤٦٥.
([3]) ابن سعد: ج٢ ص٥٤-٥٥ والبلاذرى، فتوح البلدان ص٧٢-٧٣.
([4]) الانداد: الأمثال والشركاء.
([5]) الضاحية: الأرض البارزة.
([6]) والضحل: الماء القليل.
([7]) المعامى: البلاد المجهولة.
([8]) أغفال لأرض: التى لا آثار بها.
([9]) الضامنة: ما حل من النخل.
([10]) الحين: الماء الجارى.

تعدل[١] سارحتكم [٢] ولا تعد فاردتكم [٣]. ولا يحظر عليكم الثبات ولا يؤخذ منكم إلا عشر الثبات [٤]. تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها. عليكم بذلك العهد والميثاق ولكم بذلك الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر من المسلمين".

انصرف الرسول من تبوك بعد أن أقام بها بضع عشرة ليلة [٥] وعاد إلى المدينة دون أن يتابع السير إلى حدود الشام ولم يقع قتال بينه وبين الروم كما كان متوقعا، بل اكتفى بتوطيد ولاء شمال الحجاز، وقد تم له ذلك بعد أن أقبلت عليه وفود المستعمرات النصرانية واليهودية من المنطقة الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية لبلاد الحجاز، واتفق معها على أن يؤدوا إليها جزية معينة، وبذلك تيسر له إخضاع أهالى تلك المنطقة للنفوذ الإسلامى.

ولما أدى الرسول حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة، وعاد مع أصحابه إلى المدينة أصبح لا يخشى شيئا من ناحية جزيرة العرب لسيادة الدين الإسلامى على أقاليمها ومدنها: لكنه كان يرى أن أرض الإسلام لا تزال مهددة بالخطر من ناحية الشمال حيث أن الروم يرابطون على حدود الشام الجنوبية،

---

(١) لا تعدل: لا تصرف من مرعى تريده.

(٢) السارحة: الماشية التى تسرح فى المرعى.

(٣) الفاردة: ما لا تحب فيه الصدقة.

(٤) الثابت: النخل القديم الذى ضرب عروقه الأرض وثبت مراجع أن سعد ج٢ ص ٥٤و ٥: مواشى "المقريزى: إمتاع الأسماع ج١ ص٤٦٦-٤٦٧، حاشية رقم ١ البلاذرى: فتوح البلدان ص٧٣".

(٥) المقريزى: إمتاع الأسماع ج١ ص٤٧٣.

لذلك وجه اهتمامه إلى تأمين حدود بلاد العرب الشمالية، فأمر بتجـــهيز جيــش لغزو وأطراف الشام الجنوبية، أسند إمارته إلى أسامة بن زيد بـــن حارثـــة ([1]). وأوصاه بقوله ([2]):

"أغز باسم الله فى سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، اغـــزوا ولا تغــدروا، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا تمنوا لقاء العدو، فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا: اللهم أكفناهم، واكفف بأسهم عنا، فإن لقوكم قد أجـــابوا وصيحـــوا، فعليكم بالسكينة والصمت ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وقولوا اللهم إنـــا عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تغلبهم أنت، وإعلمـــوا أن الجنـــة تحــت البارقة ([3]).

لقيت الدعوة التى وجهها الرسول إلى المسلمين للاشـــتراك فـــى حملـــة أسامة قبولا من كثير من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار. غير أن بعـــض المهاجرين ساءه تولية أسامة إمارة الحملة لحداثة سنة([4])، فقد كـــان وقتــذاك لا يتجاوز العشرين من عمره. فلما بلغ ذلك الرسول وكان قد بـــدأ يشـــتكى مـــن المرض الذى ألم به، غضب غضبا شديدا، وألقى على المســـلمين خطبـــة فـــى المسجد، قال فيها ([5]): أما بعد، أيها الناس، فما مقالة بلغتنى عن بعضكـــم فـــى تأميرى أسامة؟ والله لئن طعنتم فى إمارتى أسامة لقد طعنتم فى إمارتى أباه مـــن

([1]) الطبرى: ج٢ ص٤٢٩.

([2]) المقريزى: المصدر السابق ج١ ص٥٣٦-٥٣٧.

([3]) البارقة: السيوف "حاشية رقم ١ - المقريزى إمتناع الأسماع. ج١ ص٥٣٧".

([4]) اليعقوبى: ج١ ص٩٣.

([5]) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٤ ص٣، المقريزى، إمتاع الأسماع ج١ ص٣٧.

قبله، وأيم الله، إن كان للإمارة لخليقا، وإن أبنه من بعده لخليق للإمارة وإن كـان من أحب الناس إلى، وإنهما لمخيلان لكل خير، فاستوصوا به خيرا، فإنـه مـن خياركم".

حرص الرسول صلى الله عليه وسلم - رغم المرض الذى اعتراه علـى المضى فى إعداد حملة أسامة بن زيد، فقال للمسلمين الذين جاءوا يودعونه قبـل خروجهم مع أسامة: "أنفذوا بعث أسامة" "فأخذ المسلمون يتهيئون للغزو وركـب أسامة إلى معسكره - خارج المدينة، وطلب من أصحابه اللحاق به. غير أنه لـم يكد يشرع فى السير بحملته حتى أتاه خبر اشتداد المرض على الرسول، فـأقبل إلى المدينة بصحبة عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح، وبعد فترة قصـيرة من وصوله إليها، انتقل الرسول إلى جوار ربه وذلك فى يوم الإثنين ١٢ ربيـع الأول سنة ١١هـ ([١]).

ولما بويع أبو بكر الصديق بالخلافة، بدأ عمله بإنقاذ بعث أسامة بن زيـد لغزو أطراف الشام الجنوبية تحقيقا لما أمر به الرسول، فخرج أسـامة فـى أول ربيع الثانى سنة إحدى عشرة على رأس الحملة التى أعدت فى حيـاة الرسـول، ولم يتخلف عنه سوى عمر بن الخطاب الذى رأى أبو بكر إبقاءه بجـواره فـى المدينة ليشير عليه. وبلغ من اهتمام أبى بكر بهذه الحملة أن خرج بنفسه يـودع أسامة وقال له: استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، إنى سمعت رسـول الله يوصيك، فانفذ لأمر أمر به رسول الله، فإنى لست آمرك ولا أنهاك عنه، إنما أنـا منفذ لأمر أمر به رسول الله" ([٢]).

([١]) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٤ ص٤ المقريزى: إمتاع لأسماع ج٤ ص٥٣٧-٥٣٩.

([٢]) المقريزى: إمتاع ج١ ص٥٣٩-٥٤٠.

مضى أسامة فى سيره قاصدا البلقاء، فلما وصل أبنى ([١]) شـــن الغـــارة على أهلها وقضى على كل من تعرض له منهم ([٢]) وغنم بعض الغنائم، ثم عـــاد ظافرا إلى المدينة بعد ما يقرب من شهرين ([٣]).

كانت حملة أسامة عظيمة الأثر، فقد أوقفت القبائل العربية التى تقيم فـــى أطراف الشام الجنوبية على قوة المسلمين، كما جعلت الروم يعيدون حســـاباتهم – رغم أن أسامة لم يلق جيشهم فاضطروا إلى إرسال حامية قويـــة لـــترابط فـــى البلقاء، وأثناء حروب الردة كان للمسلمين عدة جيوش علـــى الحـــدود الشـــمالية بقيادة خالد بن سعيد بن العاص، لحماية تلك الحدود. فعلم خالد بن ســـعيد بـــأن هرقل قد أعد العدة لمهاجمة تلك الجيوش التى على الحدود، فأرسل إلى أبى بكـــو – رضى الله تعالى عنه – يستأذنه إلى منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبـــائل العرب بالشام، واستشار أبو بكر كبار الصحابة، فتقرر النفير العـــام لمواجهـــة العدوان الآتى من الشام. فلبى المسلمون الدعوة فى حماسة وحمية. وســـرعان ما أنفذت الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة، وعقد اللواء لأربعـــة مـــن الأمراء هم: شرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن، وعمـــرو بـــن العـــاص ووجهته فلسطين، وأبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص، ويزيـــد بـــن ســـفيان ووجهته دمشق. وأمر أبو بكر هؤلاء القواد أن يتعارفوا بعضهم مع بعض، وأن يكونوا مددا للجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة ([٤]).

([١]) أبى. موضع بالشعر من جهة البلقاء، ويقال أنها قربة بمؤته "ياقوت: معجم البلدان. ج١ ص٩".
([٢]) النبهانى. الأنوار المحمدية ص١٣٤.
([٣]) المقريزى: إمتاع الأسماع ج١ ص٥٤٠.
([٤]) ابن الأثير: الكامل ج٢ ص١٩٥.

سار خالد بن سعيد بن العاص نحو الشام وهزم الجيوش التى كان قد جمعها الروم، وبعد ذلك توالى قدوم الجيوش الإسلامية إلى الشام، وانضم الوليد بن عقبة، وعكرمة بن أبى جهل، وذو الكلاع الحميرى أحد أمراء اليمن إلى خالد بن سعيد بن العاص، لكن ماهان قائد جيش الروم استطاع أن يستدرجه إلى مكان قريب من وادى الصفر إلى الشرق من بحيرة طبرية، حتى أطاح، به وقطع عليه خط الرجعة واضطره إلى الفرار هو والوليد بن عقبة، تاركا وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة وذو الكلاع فتقهقرا إلى الحدود.

لكن هرقل قد سير لمهاجمتهم عدة جيوش كثيفة فتبادل القواد الرأى، وأشار عليهم عمر بن العاص بجمع قواتهم، كما أرسل إليهم أبو بكر كتابا قال فيه: "اجتمعوا عسكرا واحدا وألقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره".

وانصاع المسلمون لأمر الخليفة واجتمعت قواتهم كلها على شاطئ اليرموك الأيسر، ولما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم كلها على الشاطئ الأيمن للنهر ونزلوا فى بطحاء تحيط بها الجبال من ثلاث جهات فى منطقة تسمى واقوصة، فعبر المسلمون نهر الأردن إلى شاطئه الأيمن ووقفوا أمام جيوش الروم وكان يقودها تيودريك (هو أخو هرقل).

ووقف الجيشان وجها لوجه دون أن يتغلب أحدهما على الآخر نحو شهرين، مما أقلق الخليفة. فأرسل إلى خالد بن الوليد فى العراق: أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك. فتوجه خالد بن الوليد على رأس جيش كبير يتكون من عشرة آلاف جندى أدرك به المسلمين فى اليرموك وصادف مجيئه

أن هرقل كان قد عزز جيوشه بتعيين ماهان قائــدا وهو الذى كـــان قــد ســبق وأوقع هزيمة بخالد بن سعيد ([1]).

وبعد أن أعاد المسلمون تنظيم جيشهم حيث جعل أبا عبيدة بن الجـــراح فى القلب، وعمرو بن العاص على الميمنة، ويزيد بن أبى سفيان على المســيرة، ثم دارت رحى القتال، ورغم أن المسلمين اضطروا إلى التقهقر عدة مـــرات ([2]) انتصر المسلمون فى النهاية واستمرت الجيوش الإسلامية فى مواصلة مطـــاردة قوات الروم بأمر من الخليفة الجديد عمر حيث كان قد توفى أبو بكر فـــى تلــك الأثناء - رضى الله تعالى عنهما. فتوجهت القوات الإسلامية صوب دمشق فـــى نفس العام الثالث عشر من الهجرة.

فتـــح العــراق وإيـــران

كانت الإمبراطورية الفارسية قبيل الفتح العربى - الذى بدأ منذ سـنة ٢١ هــ-٦٣٤م - مقسمة إلى إقليمين مختلفيــن فـــى عنـــاصر الســكان والتوجيـــه الجغرافى والحياة الاجتماعية: فقد كانت مقسمة إلى إقليم العراق العجمى الـــذى يمتد شرقا حتى سلسلة الجبال الإيرانية، وهذا الإقليم ثقافته ســـامية منــذ القـــدم وحياته زراعية وكانت عاصمته المدائن.

([1]) الدكتور على ابراهيم حسن: التاريخ الإسلامى العام ص٢٢٥.

([2]) الواقدى: فتوح الشام ج١ ص١٦٥.

أمـــا الإقليم الآخر فهو إيران الخالصة، أو الهضبة الإيرانية الصميمـــة التى تمتد من سلسلة جبال إيران حتى هضـــاب أســـيا الوســـطى ([1]). وكـــانت عاصمتها مدينة اصطخر.

كانت فارس فى تلك الفترة تحكمها الأسرة الساسانية، هذه الأسرة التـــى تحتل من تاريخ إيران القومى مكانا عظيما بســـبب التطـــورات التـــى صحبـــت ظهورها، خصوصا بعد الثورة التى أعلنها أردشير مؤسس هـــذه الأســـرة ســـنة ٢١٢م ([2]) وكانت فارس ضحية لوضعها الجغرافى. ذلك أن السياسة الفارســـية كانت من أهدافها حماية الوطن من ثلاثة أعداء: البيزنطيين فى أرمينيـــا وأســـيا الصغرى، والقبائل العربية التى كانت لا تكف عن الإغارة على بادية العـــــراق، والترك ([3]) الذين كانوا يغيرون من وطنهم القديم إغارات غـــير منظمـــة علـــى الحدود الفارسية الشمالية الشرقية، والتى بدأت تشتد على خراسان منـــذ القـــرن الرابع الميلادى، وأصبحت هذه الغارات خطرا عظيما يتهدد هذه المنطقة الهامـــة التى كانت تمثل قلب الحضارة الفارسية ([4]).

وكان الساسانيون يسترضون الاتراك حينا ليتفرغوا للبيزنطيين. وكـــان البزنطيون فى حربهم مع الساسانيين يمدون أيديهم للأتـــــراك فـــى أكـــثر مـــن

([1]) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية فى أسيا الوســـطى بيـــن الفتحيـــن العربى والتركى. دار الفكر العربى. ص٨، ٩.

([2]) كريتنس: إيران فى عهد الساسانيين. القاهرة ١٩٥٧، دكتور حسن أحمد محمود: المرجـــع السابق ص٢.

([3]) الدكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص٢.

([4]) أسد رستم: الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ج١ بيروت ١٩٢٥ ص٢٢٦ ص٢٢٦، الدكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص٤.

مناسبة ليشترك الطرفان فى جهد مشترك للقضاء على الساسانيين. وفى الوقت نفسه كانت الدولة الساسانية تصارع العرب. وقد أقام الساسانيون دولة المناذرة كإمارة عازلة تدفع عنهم خطر البدو وتحمى أطراف الدولة من ناحية العراق([١]). غير أن الدولة الساسانية قضت على هذه الإمارة قضاء تاما فى مستهل القرن السابع الميلادى، فأدى ذلك إلى إفساح المجال أمام الغزوات العربية لتتوغل فيما بعد فى منطقة العراق ([٢]).

ورغم أن الفتح العربى للعراق وإيران كان فى الحقيقة أهم الأحداث فى تاريخ الشرق الأوسط لما ترتب عليه من نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ هذا الشرق وحضارته، فقد اختفت الدولة الساسانية التى كانت تلعب الدور الرئيسى منذ القرن الثالث الميلادى، وكان وجود الدولة الساسانية يعد أهم ملامح تاريخ الشرق الأوسط.

ومن الغريب أن هذه الأحداث على أهميتها غامضة إلى أبعد الحدود، فهى ما زالت فى حاجة إلى مزيد من البحث، ولعل السبب فى هذا أن المصادر البيزنطية المعاصرة للفتح العربى لفارس لم تعن بتدوين أخبار هذا الفتح بسبب انشغال الدولة البيزنطية بأحداث الفتح العربى لأراضيها، على حين نجد الكتب الفارسية قد ضاع أكثرها بعد انتهاء المقاومة. فلم يبق إلا أن ندرس هذه الأحداث من المصادر العربية، علما بأن العرب دونوا هذه الأخبار بعد حوادث الفتح بفترة طويلة ([٣]).

([١]) كريستنس: ايران فى عهد الساسانيين ص٣٥٨.

([٢]) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص٥.

([٣]) المرجع السابق ص٩.

ولما كانت الإمبراطورية الفارسية تتألف من أقـــاليم جغرافيـــة ثلاثـــة: العراق العربى والعراق العجمى – الذى يقع بين دجلة والفرات ويمتد شرقا حتى سلسلة الجبال الإيرانية – والإقليم الثالث وهو الهضبة الإيرانية الصميمـــة التـــى تمتد من سلسلة جبال إيران حتى هضاب أسيا الوسطى ([1]) فقد كان كل إقليم مـــن هذه الأقاليم يمثل مرحلة من مراحل الفتح قائمة بذاتها لها اتجاهاتها ومقوماتـــها، كما أن كل مرحلة منها ترتبط بمعركة شهيرة قررت مصـــير الإقليـــم ومكنـــت المسلمين من التغلب. ولنضرب لذلك مثلا فنقول: إن إقليم العراق العربى تقـــرر مصيره بعد معركة الحيرة وإقليم العراق العجمى تقرر مصـــيره بعـــد القادســـية والإقليم الأخير تقرر مصيره بعد معركة نهاوند ([2]). وقد بدأت المرحلة الأولـــى للفتوح الإسلامية للعراق بعد أن كتب المثنى بن حارثة الشيبانى إلى الخليفة أبـــى بكر يطلب أن يأذن له بفتح العراق ([3])، بعد أن أكتشف المثنى بن حارثة معاونـــة الفرس للمرتدين فى البحرين، بالعتاد والرجال.

لذلك فقد كان أمرا طبيعيا أن يوافق أبو بكر على غزو العراق حتـــى لا يقضى على الدعوة الإسلامية ولرد عدوان فارس بتعاونها مع المرتديـــن ضـــد المسلمين.

ومن غريب الأمر أن الدولة الساسانية واجهت رد العـــدوان الإســـلامى باستخفاف شديد. إذ عهدت إلى الحاميات المحلية وبعض العرب المرتزقة بدفـــع هذا الغزو، وهو نفس الأسلوب القديم نفسه الذى كانت تواجه به الغزاة العـــرب قبل الإسلام. وانتهى الأمر بأن دخل جيش المسلمين مدينـــة الحـــيرة. وكـــان

([1]) الدكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص٩.
([2]) المرجع السابق ص١٠.
([3]) البلاذرى: فتوح البلدان ص٢٥٠-١٥١.

نصـــر المسلمين عند الحيرة هو الذى قرر مصير العراق العربى. والســـبب أن فتح الحيرة تم بعد معاهدة معروفة تسمى معاهدة الحيرة؛ وهى تشبه المعـــاهدات المألوفة من حيث ضمانها لحرية العقيدة وحرمة النفس والمال وتنظيمها لوضـــع أهل الذمة، فكانت هذه المعاهدة ذات أثر عظيم فى نفوس الطبقات الفقـــيرة مـــن سكان العراق العربى، والعراق العجمى. بل كان فتح الحيرة نموذجـــا للفتـــوح الإسلامية التى شهدتها إيران فيما بعد. وأصبحت الحيرة بعـــد فتحـــها قـــاعدة إسلامية كبرى تتركز فيها الإمدادات والقوات لإتمام المراحل الأخرى ([1]).

أما المرحلة الثانية وهى فتح العراق العجمـــى فتتمثـــل فيـــها المقاومـــة الحقيقية للإمبراطورية الفارسية مستخدمة أسلحتها كلها. فكان أن قامت بحشـــد قواتها كلها وإلقاء هذه القوات فى معركة فاصلة ([2]). كما عمدت الدولـــة إلـــى التجنيد العام الشامل ووزعت الفرق فى كل أنحاء الأرض التى ســـيطر عليـــها الجيش الإسلامى. وفى نفس الوقت أثاروا السكان وألبوهم على المسلمين حتـــى نقضوا العهود والمواثيق ([3]).

ويبدو أن المسلمين من ناحيتهم لم يكونوا أقل ادراكا لقيمة هذا الصـــراع وأثره فى تقدير مصير الإسلام. وكان عمر فى ذلك الوقت قد تولـــى الخلافـــة، واتخذ المسلمون خطوات بعيدة الأثر.

ويتمثل موقف المسلمين فى كتاب عمر إلى سعد وفى وصيـــة المثنـــى لسعد بن أبى وقاص. ويستفاد من كتاب عمر من ناحية ومن وصية المثنى مـــن ناحية أخرى أن المسلمين واجهوا الخطة الفارسية بالإجراءات الآتية:

([1]) الدكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة ص١١.

([2]) شكرى فيصل: المرجع السابق ص٥٦.

([3]) المرجع السابق: ص٥٦-٥٧، الدكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص١٢.

الانسحاب وخروج المثنى والقواد الآخرين بحاميتهم من الأرض التي أخضعوها، ثم التراجع والتفرق فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود الأرض الإسلامية الفارسية، فنزل المثنى فى ذى قار ونزل الناس الطف. ومقابلة تجنيد الفرس العام بتجنيد إسلامى عام فالمثنى استنفر الناس وكتب عمر إلى عماله على الكور والقبائل أن لا يدعوا أحد له سلاح أو فرس أو نجده أو رأى إلا انتخبوه ووجهوه إلى المدينة ([1]) فكانت المعركة الشهيرة معركة القادسية التى تمثل الصراع الحقيقى بين الدولة الساسانية وبين المسلمين، ويتمثل فيها عنف الهجوم من ناحية الفرس ثم عمق المقاومة من ناحية المسلمين، واستمرت ثلاثة أيام انتهت بنصر حاسم كان أشبه بالمعجزات ([2]).

وكما قررت الحيرة وما تلاها من وقائع مصير العراق العربى فإن موقعة القادسية قررت مصير العراق العجمى، إذ أن الفرس كفوا عن الهجوم فى هذه المنطقة وأسلموها غنيمة للمسلمين الذين انفتحت أمامهم سهول العراق، بدليل أن المسلمين دخلوا العاصمة المدائن دون مقاومة، والبلاذرى يعطينا صورة طريفة عن اللقاء الأول بين المسلمين، وبين حضارة مترفة حين دخلوا قصور آل ساسان ورأوا ما فيها من تحف، وما فيها من فن. على كل حال استطاع المسلمين أن يسيطروا على هذا الإقليم كله.

([1]) البلاذرى:فتوح البلدان ص٢٦٤-٢٧١، كريستنس ص٤٨٣، دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص١٢.

([2]) البلاذرى: المصدر السابق ص٢٧٢-٢٧٣، دكتور حسن أحمد محمود المرجع السابق ص١٣.

والمرحلة الثالثة وهى فتح إيران وتتمثل فيها المقاومـــة الحقيقـــة للفتـــح الإسلامى. وتمكن المسلمون من مهاجمة قلب الأمة الإيرانية ومهاجمـــة إيـــران نفسها، لان العراق بقسميه كان ولاية خاضعة للنفوذ الفارسى([1]).

وفى هذه المرحلة أيضا تم التقاء المسلمين بالطبيعة الإيرانية الخالصـــة – الطبيعة الجبلية والهضبية – واضطر المسلمون إلى القتال فى أجواء تختلف عمـا ألفوه. وبدأ واضحاً أن الدولة الساسانية حاولت الإفادة من هذه الطبيعـــة بقـــدر المستطاع. فقد تحسنت المقاومة الساسانية عند سفح الهضبة أو عنـــد ســـفح الجبال فى معركة جلولاء ([2]).

وكان الأعاجم: "قد تحصنوا وخندقوا وجعلوا عمالهم وثقلـــهم بخـــانقين، وتعاهدوا ألا يفروا وجعلت الإمداد أن تقدم عليهم من حلوان والجبال... واقتتلـــوا قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله رميا بالنبل وطعناً بالرماح، حتى تقصفـــت وتجـــالدوا بالسيوف حتى انثنت..."([3]).

ثم مضى المسلمون فى نصرهم، ومضى الساسانيون فى هزائمهم، حتـــى كانت معركة نهاوند التى استطاع المسلمون فيـــها أن يقضـــوا علـــى المقاومـــة الساسانية قضاء تاما، وأن يوغلوا فى حميم الوطن الايرانـــى وقلـــب الهضبـــة الإيرانية. وكان الزحف الإسلامى من الحيرة حتى نهاوند زحفا غير منظم حقـــق نصراً للمسلمين، تعقبوا بعده العدو المهزوم الذى ولى الأدبار. فكان واضحـــاً أن

([1]) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام ص١٣.

([2]) المرجع السابق.

([3]) البلاذرى: فتوح البلدان ص٢٧٣.

نجاح الفتح الإســلامى كان يتوقف على أن يتحول المسلمين مــن هــذا الفتــح الاندفاعى إلى الفتح المنظم الذى يعتمد على خطة مرسومة وعلى ملاءمة حقيقيـة بيــن الفتح وبين الطبيعة الجغرافية. وفعلاً بدأ الفتح الإسلامى بعد هذه المعركـة الفاصلــة يســير وفقا للخطة المدروسة، ويمتاز بطابع التنظيم والملاءمــة بيــن التوسع وبين الحقائق الجغرافية. ويمكننا أن نقول أن من أساليب هــذا التنظيــم الجديد إنشاء البصرة والكوفة واتخاذهما معسكرين الغرض منها أن تحشد فيــهما القوات الإسلامية وتخرج منهما لتنفيذ أهداف مرسومة واضحة ([1]).

وإذا تأملنا فى تطور الزحف الإسلامى بعد إنشــاء البصــرة والكوفــة نستطيع أن نقول أن هذا الفتح كان على شكل (كماشة كــبرى) بمضــى الجــزء الشــمالى منها ([2]) يخترق شمال إيران. وفعلا استطاع المسلمون أن يســتولوا على منطقة خراسان، بل وصل الزحف الإسلامى إلى حدود أفغانستان فى عــهد عثمان بن عفان. والطرف الجنوبى من حركة الزحف كــان يخــترق إيــران الجنوبية ويتجه نحو الشرق ووصل هذا الزحف فعلاً حتى حدود السند ([3]).

وقد حاولت بقايا الأسرة الساسانية أن تعتصم ببلاد الصيــن وأن تعتمــد على الصين فى استعادة الأراضى التى فتحها المسلمون، لكن هذه الحركــة لــم تحقق الأغراض المرجوة منها، واستسلم الإيرانيون للفتح ([4]).

([1]) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص١٤.
([2]) المرجع السابق ص١٤.
([3]) المرجع السابق ص١٥.
([4]) المرجع السابق ص١٥.

فتح التركســـتان

إن الحد الفاصل بين فارس وتركستان ليس هو الخط الذى يفصل اليــــوم بين إيران وروسيا، إنما هو فى الحقيقة نهر جيحون باعتباره الحد الفاصل بيـــن الثقافتين الفارسية والتورانية ([1]). ومعنى هذا أن أرض الترك تشــمل المنـــاطق الخصبة الواقعة بين نهرى جيحون وســيحون، أو الإقليــم الــذى يســمى فـــى المصطلح الإسلامى باسم بلاد ما وراء النهر.

على أن هذا الإقليم فى الحقيقة ليس هو وطن الأتراك جميعهم، إنما هـــو وطن أتراك ما غرب النهر فقط. أما وطن الأتراك الشرقيين فهو يتجاوز إقليـــم ما وراء النهر صوب الشمال حتى منطقة السهوب الروسية، أو يمتد قليلاً صـوب الشرق حتى حدود الصين.

وهذا الوطن قد يتطاول أحياناً إلى الشمال الغربى مـــن بحـــر قزويـــن ويدخل منطقة القوقاز من الشمال، وأحياناً أخرى يمتد حتى حوض الفولجـــا ([2]). ويرجع ظهور الترك فى منطقة أسيا الوسطى لأول مرة إلى النصف الأخير مـــن القرن السادس الميلادى وأوائل السابع، وأن هذا الشعب اتخذ للمرة الأولى فـــى تاريخ هذا الإقليم اسم (الترك) حيث بدأ يكون فى منطقة ما وراء النهر سلســـلة من الإمـــارات التركية المســتقلة التى انفصلت عن القســم الشـــرقى من عـــالم التـــرك.

([1]) Barthold: Turkestan down to the Mongol invasion p 64

([2]) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة ص١١١.

وطبيعى أن يكون ظهور العنصر التركى مصحوبا بظهور لغـــة جديـــدة فى أسيا الوسطى هى اللغة التركية ([1]).

وقد بدأ الاحتكاك الأول بين المســـلمين وبيـــن الـــترك بعـــد أن فـــرغ المســـلمون من فتح فارس سنة ٦٥١م/٣١هــ. ففى هذه السنة توطـــد النفـــوذ الإســـلامى من منطقة خرســـان، وورث المســـلمون الفـــاتحين مـــن مخلفـــات الساسانيين هذا الخطر التركى أو المشكلة التركية. واضطـــر المســـلمين فـــى المرحلة الأولى أن يلتزموا نفس سياسة الدفاع التى سار عليها الساسانيون وكـــان الدفاع الإسلامى يكاد يكـــون مركزا فى منطقة خراسان التى نظمـــت تنظيمـــا ثغريا، إذ أصبحت ثغر المســـلمين، وظلت تخضع لهذا التنظيم الثغـــرى أكـــثر مـــن خمسين سنة، من سنة ٦٥١م/٣١هــ إلى سنة ٧٠٥م/٨٦هــ.

وهذا التنظيم الثغرى كانت له أصوله وقواعده، فكـــان يتضمـــن إقامـــة الحصون فى مناطق الحدود وإسكان المسلمين وتوطينهم خراسان. وقد وضـــح هذا التنظيم الثغرى فى عهد زياد بن أبى سفيان الذى ولى خراسان فى مســـتهل العصر الأموى. وقد لعبت خراسان فى فتح بلاد ما وراء النهر نفـــس الـــدور الذى قامت به برقة فى فتح المغرب.

فتـــح الســـند

كان انتصار المسلمين فى معركة القادسية إيذانا لهم بفتـــح الســـند فقـــد اســـتنجد كسرى الفرس ببعض ملوك البلاد المجاورة ومنها مملكة السند حيـــث

([1]) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص١١٣، ١١٤.

أمده ملك السند بالمال والرجال الأمر الذى سمح للمسلمين بمهاجمة السند ردا على تدخلها ضدهم فى معركة القادسية ([١]) ويحدثنا البلاذرى عن حملات إسلامية مبكرة عن السند، كان أولها فى عهد عمر بن الخطاب، وكان ثانيها فى عهد على بن أبى طالب، كما نفهم من رواية البلاذرى أن عثمان بن عفان كان أيضا مهتما بتقصى أحوال السند ([٢]).

كما أن البلاذرى يوضح الأسباب التى حولت هذه الحملات إلى فتح منظم للسند فى الأسباب الآتية:

أولا: اكتشاف تحالف آخر بين السند والترك حيث لقى المهلب فى عهد معاوية بن أبى سفيان ثمانية عشر فارسا من الترك ببلاد القيقان بالهند([٣]). لذلك تلاحقت حملات معاوية فأغار عبد الله بن سوار وسنان بن سلمة بن المحبق الهذلى "فأتى الثغر ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها ([٤]).

ثانيا: أعمال القرصنة البحرية التى كان يقوم بها الهنود حيث يذكر البلاذرى أن البوارج الهندية قد استولت على سفينة كانت تحمل نساء مسلمات أرسلهن ملك جزيرة الياقوت هدية إلى الحجاج بن يوسف فنادت امرأة من تلك النسوة، وكانت من يربوع يا حجاج، وبلغ الحجاج ذلك فقال: يا لبيك، فأرسل

([١]) محمد يوسف النجرامى: العلاقات السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية (رسالة ماجستير) ص٣٠.

([٢]) البلاذرى: فتوح البلدان ص٤٢٠، ٤٢١.

([٣]) المصدر السابق ص٤٢١.

([٤]) البلاذرى: المصدر السابق ص٤٢٣.

إلى داهر يسأله تخلية النسوة. فقال: أخذهن لصوص لا أقدر عليهم ([١]). لذلـــك أرسل الحجاج بن يوسف عبيد الله بن بنهان إلى الديبل (كراتشى اليـــوم) فقتـــل، فكتب لى بديل بن طهفة البجلى وهو بعمان يأمره أن يسير إلـــى الديبـــل، لكـــن الهنود استطاعوا محاصرته وقتله أيضا ([٢]). الأمر الذى أدى إلى تجميع القـوات الإسلامية من جند البصرة والكوفة، ومن جند الشام فى ثغر مكران، وتكدســـت الأسلحة وحرص الحجاج بن يوسف على أن يهيئ للقوات الإســـلامية كـــل مـــا تحتاج إليه إذا بدأت المعركة، كما سلح الجيش بنوع جديد من المجانيق يعمل فيه نحوا من خمسمائة من الجنود فى وقت واحد ([٣]). والبلاذرى يروى لنا روايـــة على لسان الحجاج بن يوسف تدل على أن الحجاج، بن يوسف كانت حربه مـــع السند رد فعل لما قام به الهنود من أعمال عدائية للمسلمين، وليس بســـبق النيـــة والترصد لفتح السند حيث يذكر البلاذرى: ونظر الحجاج فإذا هو قد أنفق علـــى محمد بن القاسم (ابن أخى الحجاج وقائد الفتح) ستين ألف ألف، ووجد ما حمـــل إليه عشرين ومائه ألف ألف، فقال شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وأردنا ستين ألـــف ألف درهم ورأس داهر.

وبعد هذا الاستعراض السريع لأسباب الفتوحات فـــى الجنـــاح الشـــرقى للدولة الإسلامية نجدها جميعا دون تخطيط مسبق من جانب المسلمين طمعا فـــى أى مكاسب سوى رد عدوان وقع من العدو أو رد عدوان متوقع، هدفهم فى هـذه الحروب جميعها حماية الإسلام ودولتهم الناشئة فشاءت الأقدار لـــهم الانتصـــار والتوسع وشاء الله لتلك البلاد المفتوحة أن يدخلها نور الإسلام.. وهكـــذا كـــانت الفتوحات الإسلامية فى الجناح الشرقى سلسلة من القتال اضطر إليها المســـلمون اضطرارا، وأنها لم تتوقف إلا حينما توقف العدو عن العدوان.

([١]) البلاذرى: فتوح البلدان ص٤٢٣، ٤٢٤.
([٢]) المصدر السابق ص ٤٢٤.
([٣]) البلاذرى: فتوح البلدان ص٤٢٧.

الفتوحات فى الجناح الغربى

فتـــح مصـــر:

شطر انتصار المسلمين على الروم فى الشام الإمبراطورية إلى شطرين: الإمبراطورية الأم فى آسيا الصغرى وما وراءها، والولايات التابعة لها: مصـــر وما وراءها فى أفريقية. ولم يعد هناك ما يصـــل شـــطرى الإمبراطوريـــة إلا البحر. لذلك كان على الدولة الرومانية أن تحاول استنقاذ إمبراطوريتـــها عـــن طريق البحر، وبالفعل أبحرت القوات البيزنطية من الإسكندرية ١٧هـــــ/٨٣٦م بقيادة قسطنطين بن هرقل – مما يدل على الأهمية الكبرى التى علقـــها هرقـــل على تلك الحملة وألقت هذه الحملة مرساها فى أنطاكية ونجحت فـــى الاســـتيلاء عليها وانضمت إلى القبائل العربية المتمردة من أهل الجزيرة ([1]).

الأمر الذى اضطر أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنـــه – أن يجمـــع قواته وأن يعسكر فى فناء حمص، وأقبل خالد بن الوليد مـــن قنســـرين وأنضـــم إليهم، واستقر رأى المسلمين على التحصن وطلب المدد من الخليفة عمر، الـــذى ما أن علم بخروج القبائل العربية بالجزيرة على المسلمين بحمص حتى ســـارع بإرسال المدد إليهم وفى نفس الوقت سرح سهيل بن عدى إلى الجزيرة لأن أهلـها الذين حرضوا الروم (البيزنطيين) على المسلمين بحمص، وكان لجديه تحركـات المسلمين أثر كبير فى إلقاء الرعب فى نفوس تلك القبائل التـــى مـــا أن علمـت بوصول المدد إلى المسلمين حتى تخلت عن الروم وعادت إلى بلادها – ثم شـــن المسلمون هجومهم على جيش الروم الذى انهارت مقاومته بعد انسحاب القبـــائل

([1]) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج٤ مصر ١٩٧٧م تحقيق محمد أبـــو الفضـــل ابراهيـــم ص٥٠، ٥١ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٢ القاهرة ١٢٩٠ هـــــ ص٢٢٤. إبراهيـــم أحمد العدوى:

العربية - واضطر إلى الانسحاب بدوره بحرا إلى الإسكندرية ونتيجة لإنتصارات المسلمين هذه وتغلبهم على حملة الروم ثبتت أقدامهم فى بلاد الشام، ولكن خرج المسلمين من حوادث حروبهم فى الشام بدرس هام، وهو أن استقرارهم فى الشام رهن بتوقف الأعمال العدوانية من مصر (١).

وجاءت على هذا النحو - حركة هرقل الأخيرة فى انطاكية وشمال سوريا حافزا حمل قادة المسلمين على إعادة النظر فى الموقف الحربى، وذلك لتأمين الفتوحات فى بلاد الشام وخاصة بعد أن عمد البيزنطيون إلى جانب تعزيز قاعدتهم فى قيسارية (قيصرية) إلى إرسال قسطنطين بن هرقل من الموانئ المصرية.

ويبدو أن عمرو بن العاص هو أول من تنبه إلى أن مصر غدت محور الارتكاز لقوات الروم فى شرق البحر المتوسط، فمصر كانت القاعدة التى انسحب إليها الأرطبون حاكم الروم على بيت المقدس وأخذ يجمع الجنود ويحشد الحشود تمهيدا لاسترداد بلاد الشام، ويبدو أن مفاوضة صفرونيوس بطريرك بيت المقدس للمسلمين إنما كان رغبة منه فى كسب الوقت حتى يتمكن القائد البيزنطى الأرطبون من سحب قواته من تلك المدينة، والوصول إلى مصر آمنا، وربما كان هناك ثمة اتفاق مسبق بين صفرونيوس والأرطبون من أجل الصالح العام فالأول يحافظ على مدينته والآخر يحافظ على جنوده ويحميهم (٢).

---

(١) الطبرى، الرسل والملوك ج٤ ص٥١، ٥٢ ابن الأثير، الكامل ج٢ ص٣٢٤، ابراهيم العدوى، الإمبراطورية،ص٤٣-٤٤.

(٢) الطبرى، ج٣، ص٢٧٥ حاشية (١) وأنظر أيضا: العدوى، مصر الإسلامية، ص١١، ١٥ الإمبراطورية، ص٤٤-٤٤٥ عبد الرحمن الرافعى وسعيد عاشور، مصر فى العصور الوسطى، ص١٩.

وكانت مصر أيضا – كما سبق أن ذكرنا – القاعدة التى انطلقت منها حملة قسطنطين بن هرقل إلى إنطاكية، وكادت تلك الحملة تزعزع الفتوحات الإسلامية فى الشام، ومما لا شك فيه أن قوة تلك الحملة وما بعثته فى قلوب المسلمين من فزع جعلهم لا يغضون الطرف عن ذلك الإقليم الذى انبعثت منه الحملة أنهم إذا كانوا قد انتصروا على القوات البيزنطية، فأنهم لم يأمنوا أن تتكرر تلك المحاولة، خاصة أن البحر ما زال فى أيدى الروم وعن طريقة يمدون الموانئ التى لم تسقط بعد بالمؤن وبالرجال وخاصة قيسارية التى ظل المسلمون يحاصرونها بعد سقوط بيت المقدس، والتى ظلت صامدة بفضل تلك الإمدادات فى وجه المسلمين، وكانت مصر هى أقرب قاعدة زودت قيسارية وغيرها من الموانئ بحاجتها من المؤن، ومن ثم غدت مصر محور ارتكاز القوات البيزنطية فى حوض البحر الشرقى.

وكان فتح مصر بعد الشام ضرورة، فقد أدرك قادة المسلمين بالشام أن مصر ليست قاعدة يمكن أن تقضى على الفتوحات فى الشام فحسب بل أنها ذات مركز استراتيجى يهيئ موقعة الجغرافى للبيزنطيين القيام بحملة انتقامية على بلاد العرب نفسها أى على المدينة المنورة حينما يفيق البيزنطيون إلى أنفسهم.

وعلى هذا النحو كان فى الاستيلاء على مصر حرمانا للأسطول البيزنطى من أية قاعدة يستطيع أن يعمل منها ضد المسلمين سواء مياه البحر المتوسط الشرقى قرب سواحل الشام، أو فى مياه البحر الأحمر قرب الحجاز([١]).

([١]) الدكتورة ليلى عبد الجواد إسماعيل: الدولة البيزنطية ص٣٩١.

لذلك انتهز عمرو بن العاص فرصة المؤتمر الحربى الذى عقده عمـــر بن الخطاب فى الجابية (وهى مرتفعات الجولان الحالية) فى ١٨هـ/٦٣٩م أثناء حضور عمر بن الخطاب إلى الشام ليســتلم بيت المقـدس مـن بطريركـها صفرونيوس، وعرض عمرو بن العاص على المؤتمر الدور الذى ساهمت بـه قوات الروم فى مصر فى خلق المتاعب التى واجهت المسلمين بالشـام، وأنـه يجب على المسلمين آلا يضيعوا الوقت، بل يوقعوا بالروم قبـل أن يسـتفحل الأمر ([1]).

تختلف الروايات حول مسير عمرو بن العاص إلى مصر لفتحها، ومـن هذه الروايات أن عمرو بن العاص قدم إلى عمر بن الخطـاب وهـو بالجابيـة. (١٨هـ/٦٣٩م) وخلا به وقال له "يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أسير إلى مصـو وأن عمرا أخذ يحسن له فكرة فتح مصر وما يعود على المسلمين من نتائج مـن وراء فتحها، غير أن الخليفة عمر بن الخطاب تخوف من ذلك علـى المسـلمين وكرهه لما فى مصر من جموع الروم، ومع ذلك عمرو يلح عليه ويحسـن لـه الفكرة ويعظم له أمر مصر ويهون عليه فتحها، وأنه عليم بطريقـها ومسـالكها، حتى وافق الخليفة، وعقد له أربعة آلاف رجل، وقيل ثلاثـة آلاف وخمسـمائة، وأمره بالمسير إلى مصر وقال له: سر وأنا مستخير الله فى سـيرك، وسـيأتيك كتابى سريعا أن شاء الله تعالى، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بـالإنصراف عـن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتـها قبـل أن يأتيك كتابى فأمض لوجهك واستعن بالله واستنصره ([2]).

([1]) الطبرى، الرسل، ج٣ ص٦٠٧ النويـرى، ج١٩، ص١٧١ أسـد رسـتم: الـروم، ج١ ص٢٤٨، العدوى، مصر الإسلامية، ص١٥.

([2]) ابن الحكم، فتوح مصر، ص٧٦، ٨٠-٨١، الكندى، الولاة والقضاه ص٧، أبو المحاسـن، النجوم الزاهرة ج١ ص٥-٦، السيوطى، حسن المحاضرة، ص٦٣.

فتــح المغــرب

ولقد كانت الضرورة العسكرية التى دفعت المسلمين إلـــى فتــح مصـــر لتأمين بلاد الشام من خطر الروم هى نفس الضرورة التى دفعتهم إلى أن يدخلـوا مع بلاد المغرب فى حرب طويلة وكانت بلاد المغرب حينئذ يطلق عليها الـــروم لفظ أفريقية حيث كان يطلق الروم على كل ما وراء برقة أو ما وراء طرابلـــس إلى المغرب لفظ أفريقية.

وقد استعمل المسلمون لفظ أفريقية أيضا على نفس الأراضى فـــالبكرى فيما ينقل عنه ياقوت يقول: حد أفريقية طولها مـــن برقـــة شـــرقا إلـــى طنجـــة الخضراء غربا، وعرضها من البحر إلى الرمال التى فى أول بلاد السودان.

وكانت أفريقية ولاية الدولة الرومانيـــة (البيزنطيـــة) غـــداة الفتوحـــات الإسلامية وكانت عاصمة تلك الولاية يومئذ قرطاجنة، وكان هرقل قد ولى عليها ملك يقال له جرجير (جريجوريوس) ولم تكن ولاية أفريقية مســـتقرة الحـــدود، فكانت من الشرق تشمل طرابلس وبرقة حينا، وكانت تتخلى عنها لتكـــون فيمـــا تشمل ولاية مصر حينا آخر، وكانت تمتد إلى المغـــرب تبعـــا لامتـــداد نفـــوذ الروم[1] ولم يغلب لفظ المغرب على لفظ أفريقية إلا فى القرون المتـــأخرة وقـــد كانت برقة وطرابلس قد انفصلتا على ولاية أفريقيـــة منـــذ عـــهد الإمـــبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م) وأصبحتا رسميا تابعتين لمصر [2].

---

[1] شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول - دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعـات الإسلامية دار العلم للملايين بيروت - الطبعة السادسة ١٩٨٣. ص١٥٠-١٥١.

[2] الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر الإســـلامى مؤسســـة شـــباب الجامعة للطباعة والنشر: الإسكندرية ص٥٥.

وقد كان من الطبيعى أن يتوجه عمرو بن العــاص إلــى فتــح برقــة وطرابلس بعد فتح مصر حيث أنهما كانتا رسميا تابعتين لمصر. فكان عمــرو بن العاص على رأس جيش من فرسانه حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثــة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية، ثم سار عمرو بن العاص بعد ذلــك حتــى نزل طرابلس سنة أثنين وعشرين من الهجرة، فوجد سفن جند الروم راسية علــى الشاطئ فأسرع بمهاجمة المدينة والتى لم يكن لها أسوار تحميها فلم تفلت الــروم إلا بما خلف لهم من سفنهم ([1]) ونستنتج من وجود سفن الــروم علــى شــاطئ طرابلس، إصرار الروم على العدوان وأنهم كانوا يعدون العدة لذلك لولا يقظــة عمرو بن العاص.

ولما ظفر عمرو بمدينة طرابلس "جرد خيلا كثيفا مــن ليلتــه وأمرهــم بسرعة السير، فأصبحت خيله مدينة سبرت، وقد غفلوا، وقــد فتحــوا أبوابــهم لتسرح ماشيتهم، فدخلوا، فلم ينج منهم أحد وأحتوى عمرو على ما فيها" ([2]) كمــا أرسل عمرو بن العاص بحملة عسكرية إلى ودان، ويبدو أن المسلمين افتتحــوا ودان وسبرت بقصد القضاء على أى محاولة من جانب بربر نفوسه لنجدة أهــل طرابلس فى نفس الوقت لتأمين فتحهم للساحل، على نحو ما فعله عمــرو عنــد افتتاحه برقة، إذا ضمن خضوع زويله وفزان للمسلمين، خشية أن ينقض أهــل هذه المناطق الداخلية على جيوشه، فيقطعون عليها خط الرجعة ([3]).

وقد كان موقف الروم موقف انقضاض متصل ظــاهر بعضــه وخفــى أكثره. كانوا كلما توفرت لهم إمدادات من الجند أو قطع من الأســطول ثــاروا

([1]) ابن الحكم: فتوح مصر ص١٧٠-١٧١.

([2]) المصدر السابق ص١٧٢٥.

([3]) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب ص٦٣.

بالمسلمين وانتقضوا عليهم، فإذا عاد إليهم المسلمون فى الغزوات القوية استكانوا ليتغفلوهم من جديد وليصلوا ما بينهم وبين بيزنطة من أسباب، قدر ما تســـعفهم بيزنطة وقدر ما يسعفهم سكوت المسلمين. ولذلك لم تهدأ مقاومـــة الـــروم كـــل سنوات الفتح الطويلة وإنما استمرت منذ أوطأ المسلمون خيلهم هذه الأرض حتى كانت لهم الغلبة عليها فى ولاية حسان بن النعمان، وموسى من بعده. ولم تكـــن محاولة حسان بناء تونس قريبا من قرطاجنة إلا تعبيرا عن قلق المســـلمين مـــن هذه المقاومة ومعالجتهم المثلى لها. فقد وجدوا أن قرطاجنـــة – هـــذه النـــافذة العريضة التى تطل على البحر، والتى تصل بين بيزنطة والـــروم – يجـــب أن يسكنها المسلمون أنفسهم حتى يأمنوا هذا البيات المتكرر والبغتات المتصلة ([1]).

ولسنا فى حاجة إلى أن نقف وقفات مفصلة عند موقف الروم مـــن كـــل غزاه من غزوات المسلمين فكتب التاريخ فيها التفصيل الكافى كمـــا أننـــا نجـــد جرجير (جريجرويوس) وصاحب أفريقية يتخذ من جانبه موقفا عدائيا للمسلمين. فيبادر بتحصين بلاده، ويتخذ العديد من الخطوات استعدادا لحـــرب المســـلمين. وعمل على التقرب من البربر طمعا فى أن ينصروه على المسلمين ([2]) علـــى أن عمرو بن العاص كتب إلى الخليفة يستأذنه فى فتح أفريقية، وذكر له فى جملة ما ذكره "أن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام، فـــإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل" ([3]) لكن عمـــر بـــن الخطاب يرفض هذا الاقتراح فكتب إليه عمر: "لا إنها ليست بأفريقيـــة ولكنـــها

([1]) شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامى ص١٨٣.

([2]) الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب ص٦٤.

([3]) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص١٧٢-١٧٣.

المفرقة فارقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيــت" ([1]) لكــن المســلمين يضطروا لمواجهة جرجير عسكريا فى عهد الخليفة الثالث عثمـــان بـــن عفـــان رضى الله تعالى عنه وتفصيل ذلك موجود فى كتب التاريخ.

ويلاحظ أن فتح المغرب انقسم إلى فترتين:

الفترة الأولى: وتمتد من سنة ٢٣ حتى سنة ٥٥هـ، أى منـــذ الحملـــة الأولى بقيادة عمرو بن العاص حتى عزل عقبة بن نافع مــــن ولايتـــه الأولــــى لأفريقية. وتتميز هذه الفترة بأن الحملات التى قادها المســـلمون خلالـــها لفتـــح المغرب كانت أشبه بحملات تأديبية فقط.

الفترة الثانية: وتمتد من سنة ٥٥ حتى سنة ٩٠هـ أى من بداية ولايـة أبى المهاجر دينار حتى إتمام الفتح على يد موسى بن نصير. وفى هذه الفـــترة الثانية أخذت الحملات الحربية إلى تثبيت أقدام المسلمين واستقرارهم فـــى هـــذه البلاد.

ويلاحظ أن موسى بن نصير بعد أن فتح طنجة والتى بها قد تم فتح آخر مراحل فتح المغرب. كلف طارق بن زياد الذى عينـــه علـــى طنجـــة، مهمـــة الاتصال بحاكم سبته، وكان يحكمها آنذاك رجل من الروم يدعى يوليـــان حيـــث كانت المدينة الوحيدة فى المغرب والتى لازالت تخضع للروم. وكـــانت ســـبته تتمتع بموقع جغرافى فريد يجعلها مدينة منيعة حيث كان يحيط بها ماء البحـــــر من ثلاث جهات.

([1]) ابن عبد الحكم: فتح مصر. ص١٧٣.

كما أنها كانت تمثل مفتاح أسبانيا، والحارس الذى يحميها مـــن هجــوم يشن عليها من الجانب الأفريقى. فهى تقع قبالة الجزيرة الخضراء مـــن أرض أسبانيا، وتسيطر عليها المياه التى بينها وبين تلك الرقعة الأسبانية.

فتــح الأندلــس

كان يوليان يرى على الرغم من دعم صلاته بدولة القوط فـــى أســبانيا. أن تطور الأوضاع فى بلاد المغرب،واستقرار الفتوح الإسلامية بهايفرض عليــه حسن الجوار مع الإدارة الإسلامية الجديدة وتجنب الاصطدام بها ولـــذا رحــب يوليان بسياسة موسى بن نصير الذى كلف طارق بن زياد مهمة تنظيم علاقـــات الجوار مع حاكم سبته.

وسارت الأمور بعد ذلك فى سبته بما دفعت بحاكمها يوليان إلى الإنتقــال من سياسة حسن الجوار مع المسلمين إلى سياسة التحالف والإتفاق على تحقيـــق المصالح المشتركة بينهما. ذلك أن أحد كبار رجال القوط، وأســـمه رودريـــك، وهو الذى عرفه العرب بأسم لوزريق استطاع أن يطيح بالملك الحـــاكم، وهــو غيطشة، ثم أعتلى العرش ولم يكتف لوزريق بذلك، وإنمـــا أخــذ يعمــل علـــى إنـــزال أشد ألوان الأذى بأبناء غيطشة، وسائر عائلته. الأمــــر الــذى أدى أن يتجه أبناء غيطشة إلى يوليان حاكم سبته ليتعاون معـــهم فـــى اســترداد حقــهم المسلوب فأعد يوليان حملة نزلت أسبانيا، واشتركت مع الثـــوار فـــى أعمالـــهم الحربية. ولكن قوات لوزريق استطاعت الحصول على النصر ودحرت حملـــة يوليان، واضطرتها للعودة إلى سبته. وما إن انتهت هذه المعارك فـــى أســبانيا عن فوز لوزريق حتى أيقن يوليان أنه لم يعد أمامه مفــــر مــن الاتجـــاه نحــو

السلطات الإسلامية فى القيروان، وطلب مساعدتهم ضد لوزريق. فذهب يوليان بنفسه إلى القيروان ليقنع موسى بن نصير بأن يغزو الأندلس.

أرسل موسى بن نصير إلى الخليفة فى دمشق الوليد بن عبد الملك يستأذنه فى فتح بلاد الأندلس حيث أن تلك البلاد قريبة من ممتلكات المسلمين فى طنجة، حتى أن المرء يشاهد مناظرها بنفسه فى سهولة، كما أننا لا ننسى أنه كان بين موسى بن نصير وبين يوليان معاهدة دفاع مشترك، ولما كرر موسى بن نصير على الخليفة ذلك أصر الخليفة على ضرورة إرسال الحملات الاستطلاعية أولا، قائلا لموسى: (وأن كان فاختبره "أى الأندلس" بالسرايا).

وقد استطاع موسى بن نصير فى أقل من أربعة عشر شهرا أن يقض على مملكة القوط قضاء تاما بعد عدة معارك طاحنة وأتخذ اثنائها يوليان من الجزيرة الخضراء مقرا له ليؤمن خطوط مواصلات المسلمين بين أسبانيا وبلاد المغرب.

وإذا كانت المصلحة المشتركة بين يوليان حاكم سبتة وبين موسى بن نصير حتمت عليهما التعاون لحماية بلاد المغرب من الأسبان، إلا أن تحول هذا التعاون إلى فتح الأندلس يحتاج إلى المزيد من الدراسات للكشف عن الأسباب الحقيقية التى كانت وراء فتح الأندلس، خاصة إذا علمنا أن الخليفة الوليد بن عبد الملك أرسل مغيث الرومى، ومعه أمر من الخليفة يطلب فيه من موسى بن نصير إيقاف الغزو والحضور فورا إلى دمشق. لكن موسى بن نصير لم يتمكن من تنفيذ هذا الأمر على وجه السرعة. إذ جاء أمر الخليفة بالعودة إلى دمشق

وهو قرب جبال البرت، أى فى المنطقة الشمالية الوعرة من أرض أسبانيا ومـــن ثم فإن تأخير موسى بن نصير فى تلبية أمر الخليفة جـــاء نتيجـــة المقتضيـــات الحربية وحرصا على سلامة المسلمين فى أسبانيا.

وأخيرا أبحر موسى بن نصير، ومعه موكب النصر من اشبيليه فـــى ذى الحجة سنة ٩٥هـــ. لقد أدار موسى بن نصير فـــى جـــهد متصـــل، دام أربـــع سنوات إلا شهرا تقريبا فتح الأندلس. إذ بدأ الفتح الإسلامى لأسبانيا فى رجـــب سنة ٩٥٢هـــ، وها هو ذا موسى بن نصير يغادر البلاد فـــى ذى الحجـــة ســـنة ٩٥هـــ [1].

ويذكر المقرى فى نفح الطيب أن عمر بن عبد العزيز هو أول من جعـل الأندلس مستقلة عن والى أفريقية سنة ١٠٠ هـــ [2].

---

[1] الدكتور إبراهيم أحمد العدوى: موسى بن نصير موسى المغرب العرب، ص ص ٦٦، ٨٥.
[2] المقرى: نفح الطيب ج١ ص٢٣٣.

القضيــة الثالـثـة

قراءة جديدة فى حركة التعريب

اتفق كل من كتبوا فى قضية التعريب على أن أهـــم أســباب التعريــب كانت: انتشار الإسلام، وهجرة القبائل العربية إلى البلــدان المفتوحــة وتعريــب الدواوين، وتفوق الحضارة الإسلامية.

كما اتفقوا أيضا على أن هذه الأسباب هى بعينها التى أدت أيضـــا إلـــى انتشار اللغة العربية ٠٠ وقد أدى هذا الخلط الواضح فى المفاهيم إلى أن تصبـــح قضية التعريب مثارا لكثير من التساؤلات٠٠ لذلك فقد رأينـــا أن نبــدأ بتحديــد المفاهيم أولا، فنقول: إن انتشار اللغة العربية يعنى تسرب الكثير مـــن الألفــاظ والمفردات العربية إلى اللغات الأخرى الأعجمية خارج الجزيرة العربية٠ وقــد يتعدى الأمر إلى إتقان قلة من أهالى تلك اللغات اللغة العربية قـــراءة وكتابــة٠ وقد حدث هذا فى العصور الوسطى حيث انتشرت اللغة العربية خارج الجزيــرة فى جميع لغات العالم بدرجات تفاوتت من أمة إلى أخرى.

أما التعريب فهو يعنى تحول لسان الأهالى خارج الجزيرة العربية إلـــى اللسان العربى، وهجر لغاتهم المحلية. وقد حدث هــذا أيضــا بعــد الفتوحــات الإسلامية فى المنطقة المحصورة بين الخليج والمحيط والمعروفة حاليا بمنطقـــة الدول العربية. فقد هجر أهالى تلك البلدان لغاتهم الأعجمية وحلت اللغة العربيــة محل الآرامية والسريانية فى الشام والعراق، والقبطية فى مصر، والبربرية فـــى بلدان المغرب..

وإذا كانت أسباب انتشار اللغة العربية تمثل عاملا هامـــا مـــن عوامـــل التعريب فإن ذلك لا يعنى أن نجمد عند هذه الأسباب وكفى، بل يجب علينـــا أن

نبحث عن العوامل التى سمحت لأسباب انتشار اللغة العربية أن تأخذ مسيرتها نحو التعريب فى مناطق معينة، ولم تسمح بذلك فى مناطق أخرى.

وهذه الدراسة هى محاولة للتعرف على العوامل التى عبر بها انتشار اللغة العربية الحواجز إلى التعريب فى منطقة دول العالم العربى، والعوامل التى منعت انتشار اللغة العربية من أن تأخذ مسيرتها نحو التعريب فى بقية المناطق التى فتحها المسلمون. وذلك فى ضوء الدراسات الحديثة للغات، والتى كشفت أخيرا عن جانب على قدر عظيم من الأهمية أطلق عليه (القرابة اللغوية).

وقبل أن نتعرض لتلك الدراسة اللغوية الحديثة سنحاول بداية مناقشة العوامل التى اتفق عليها الكتاب أنها أهم أسباب التعريب لنضعها فى موضعها الصحيح، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق.

أولا: انتشار الإسلام

يرى كل من كتبوا فى قضية التعريب أنه كان على رأس أسباب التعريب هؤلاء الرسل الذين بادر الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى السنة السادسة للهجرة بإرسالهم إلى الملوك والأمراء يحملون كتبا يدعونهم فيها إلى الدخول فى الإسلام ([1]).

([1]) ابن هشام: كتاب سيرة الرسول (القاهرة ١٣٣٢هـ) ج٣ ص٤١٨-٤٢٠، الطبرى: تاريخ الأمم والملوك (ليدن ١٨٨١م) ٣ص ٨٥ القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الأنشا القاهرة١٩١٣ من ج٣٠ ص٣٧٦-٣٨٠.

وقد تفاوتت ردود الملوك والأمراء، فمنهم من أهان الرسـول وامتـهن الدعوة، وقليل منهم جاء ردة معتدلا. ولكن الشئ الثابت أنهم لم يقبلوا الدعـوة – وأن كسرى وهرقل والمقوقس بوجه خاص رفضوا الإسـلام دينـا. وجـاءت خطورة هذا الرفض فى أن هؤلاء الحكام لم يبلغوا الدعوة إلى رعاياهم، وإنمـا وقفوا حاجزا فى طريق وصول دعوة الإسلام إلى شعوبهم ([1]).

وقد مكنت السياسة العامة للدولة الإسلام من الإنتشـار، وكـانت هـذه السياسة تتألف من أركان كثيرة، أهمها معاملة أهل الذمـة، لأن هـذه المعاملـة كانت من أهم الأسباب التى هيأت الذميين نفسيا لتقبـل الدعـوة إلـى الإسـلام والإقبال على الحضارة الإسلامية. والمعروف أن سياسة الدولة الإسلامية كـانت تتبع من المعاهدات وعقود الصلح التى عقدت مع المدن المفتوحـة ([2]). هـذه المعاهدات كانت كلها تتجه اتجاها واحدا تقريبا، وتنبع من مصدر واحـد. فقـد تضمنت جميعها منح أهل الذمة حرياتهم الدينية، حتى أن المجوس فـى إيـران عدوا من أهل الذمة، فكانوا على قدم المساواة مع الديانات الأخرى ([3]).

وفوق هذا نالوا الحريات المدنية وتكفل المسـلمون بحمايتـهم وتوفـير أسباب الطمأنينة لهم، وذلك مقابل دفع الجزية التى كانت تـتراوح كـثرة وقلـة حسب الغنى والفقر، وكانت تعفى منها طبقات كبيرة من الناس، ونحـن إذا مـا

([1]) دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب. مقال بمجلة عالم الفكر وزارة الإعلام بـالكويت. ١٩٨٣، ص٢٣٥.

([2]) الدكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى بيـن الفتحيـن العربى والتركى. دار الفكر العربى ص٢٢.

([3]) الدكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٣٢.

تدبرنا قيمة الجزية أدركنا أنها ليست بالثقل الذى يغرى إنسانا على التخلى عـــن ديانته وعقيدة آبائه وأجداده تهربا منها. ذلك أن أقصى ما كان يؤخذ من الرجـل الثرى لم يتجاوز ثمانية وأربعين درهما فى العام، أى أقل من دينـــارين ([1]). ولا أدل على أن المسلمين لم يتخذوا الجزية أداة للضغط على أهل الكتاب من القصـة الشهيرة التى رويت عن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيـز (٩٩-١٠٢هــ/ ٧١٧-٧٢٠م) عندما أرسل إليه واليه على مصر يشكو له تناقص خراج البـــلاد بسبب تزايد الدخول فى الإسلام ويقترح عليه عدم إعفاء من يدخلون الإسلام مـن الجزية. ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز رد عليه قائلا:

"إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جابيا" ([2]).

ومهما يكن من أمر فإن انتشار الإسلام بتلك السرعة والسهولة اللتين تـم بهما جاء ظاهرة فريدة من نوعها فى التاريخ، ذلك أنه لم تكد تنقضى على وفـاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – مائة سنة حتى كان الإسلام قد ثبتت ركـــائزه فى بلاد ممتدة من المحيط الأطلسى وشبة جزيرة ايبيريا غربا حتى بلاد الـــهند وحدود الصين شرقا.

وهكذا يرى كل من كتبوا فى قضية التعريب أنه كـــان لا بـــد أن يـــأتى انتشار الإسلام مصحوبا بالتعريب، لأن معتنقيه كانوا مطالبين بـــأداء فروضـــه، ومن الواضح أن النطق بالشهادتين يتطلب نطق بعض الألفـــاظ العربيـــة وفـــهم معناها، فضلا عن أن أداء شعائر الصلاة يتطلب معرفة فاتحة الكتـــاب وحفـظ بعض قصار السور من القرآن الكريم، ثـــم إن الإســـلام يطلـــب مـــن المســـلم

([1]) دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب ص٢٤١.

([2]) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير (طبعة ليدن) ص١٨٣.

الإنصـــات للقرآن الكريم إذا قرئ على مسمع منه وترتيله، وتدبر ما فيـــه مـــن آيات بينات، وهذه كلها أمور ترتبط بمعرفة اللغة العربية وفهمهـــا. وطبيعـــى أن يكون من المتعذر على اللغات المحلية أن تستمر فـــى صمودهـــا، فـــأخذت تتقلص تدريجيا، وتنكمش دائرة استعمالها لتفسح المجال أمام العربية ([1]). ولـــهذا اعتبر كل من تعرض لقضية التعريب أن انتشار الإسلام كان على رأس أســـباب التعريب.

ولكن هذا القول مردود عليه بأن هناك ثلاث حالات ترتبط ببلاد فتحـــها المسلمون ومع ذلك لم تعرب أى منهم، ونعنى بـــهذه البـــلاد فـــارس وأســـبانيا والتركستان، أما فارس فما كاد الفرس يعتنقون الإسلام حتى أظهروا تمسكا قويـــا به، وتفانيا فى الذود عنه.

والغريب أننا نتصفح تاريخ الأدب العربى فنجد خـــير مـــن أثـــرى أدب الكتابة وفنها كانوا من أصل فارسى، وعلى رأسهم عبد الحميد الكاتب وابن قتيبـــة وابن المقفع والفضل بن سهل ابن هارون ... الخ، فى حين برز فـــى الشـــعر العربى أمثال بشار بن برد من خلدوا أسماءهم على صفحـــة الشـــعر العربـــى. يضاف إلى هؤلاء جميعا علماء أفذاذ أمثال الطبرى وابن ســـينا والخوارزمـــى. ومع ذلك كله فقد اعتنق الفرس الإسلام، ولكنهم احتفظوا بلغتهم، وإن جاء هـــذا الاحتفاظ جزئيا غير كامل، حيث إن اللغة الفارسية غدت تكتب وتدون بـــأحرف عربية من ناحية، كما أن كثيرا من الألفاظ العربية، وخاصـــة تلـــك المرتبطـــة بالإسلام وعلوم الدين دخلت الفارسية من ناحية أخرى ([2]).

([1]) دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب ص٢٤٢، ٢٤٨.

([2]) المرجع السابق، ص٢٥١.

أما الحالة الثانية وهى أسبانيا فهى تمثل – على حد تعبير الدكتور سعيد عاشور – حالة من الحالات الفريدة فى التاريخ الإسلامى التى استرعت أنظار الباحثين، واستأثرت بجهود المفكرين. وذلك أن الحضارة الإسلامية كانت لها ركيزة أساسية فى بلاد الأندلس، تجلت فى كافة الميادين سواء الدينية والفكرية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية وغيرها، حتى لقد غدت مدن الأندلس – مثل قرطبة وطليطلة وأشبيلية وغرناطة – مراكز إشعاع حضارى قصدها طلاب العلم والمعرفة من شتى أنحاء الغرب، لينهلوا من مناهلها، ومع ذلك فإن الحقيقة التى تركها المسلمون لا تتناسب مع أمجاد تلك الحضارة وعظمتها. ومهما قيل فى هذا من اعتبارات فإنه لا يفسر لنا الأسباب التى وقفت حائلا أمام تعريب هذا الجزء من العالم الإسلامى فى العصور الوسطى، مهما غدت مئات من الكلمات العربية تمثل جزءا أساسيا فى قاموس اللغتين الأسبانية والبرتغالية.

ولما دخل العرب مصر سرعان ما انتشرت لغتهم بين المصريين حتى أصبحت لغة التخاطب بينهم، لكن هذا لم يمنع من إحياء اللغة القبطية فى أول الأمر على حساب اللغة اليونانية التى كانت لغة البلاد الثقافية منذ عهد البطالمة. وقد استهل كثير من المصريين كتابة العربية بحروفهم القبطية، وقد بقى لنا عدد من الوثائق العربية التى كتبوها بالحروف القبطية ([1]). ثم تأتى بعد ذلك المفاجأة وهى تعريب مصر على الرغم من عدم انتشار الإسلام بين كل أبناء مصر.

([1]) دكتور محمد حمدى البكرى: وثائق عربية بأبجديات غير عربية. مقال بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة. المجلد السابع عشر – الجزء الأول. مايو سنة ١٩٥٥ ص٣٨.

وقد اتضحت هذه الظاهرة فى القرن الرابع الهجرى عندما نجد بعض المؤرخين المسيحيين يدونون كتاباتهم التاريخية – وبعضها فى تاريخ الكنيسة نفسه – باللغة العربية ومن هؤلاء البطرق الملكانى سعيد بن بطريق المعروف باسم (أوتيخا) المتوفى سنة (٣٢٨هـ-٩٤٠م) قد دون بالعربية كتابا تاريخيا كبيرا فى جزءين اسماه (كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) [1] وكذلك ساويرس بن المقفع – أسقف الأشمونين – المتوفى فى أواخر القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) والذى دون كتاب (سير الآباء البطاركة) وقال فى مقدمته ما نصه (فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الإخوان المسيحيين، وسألتهم نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطى واليونانى إلى القلم العربى؛ الذى هو الآن معروف عند أهل الزمان بإقليم ديار مصر، لعدم معرفة اللسان القبطى واليونانى) [2].

ومثال أخير من التركستان. فقد كانت حماية ما وراء النهر من عدوان الأتراك الشرقيين من أهم منجزات العصر الأموى التى مكنت السيادة الإسلامية من بلاد ما وراء النهر. وأضافوا إلى هذه الجهود جهودا أخرى فى ميدان الدعوة إلى الإسلام. وقد وضحت هذه الجهود منذ فجر الفتح الإسلامى، فقد كان قتيبة بن مسلم يبنى المساجد فى بخارى وسمرقند، ولم تكن المساجد دورا للعبادة فحسب، إنما كانت مدارس الثقافة العربية الإسلامية. وأتبع ذلك بتوطين القبائل العربية فى المدن الكبرى، وتتابعت هذه الجهود فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى أسقط الجزية عمن أسلم وأمر عماله بالدعوة إلى

---

[1] سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى فجر الإسلام ص٢٣١ الطبعة الثانية ١٩٧٠م دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب ص٢٥٨.

[2] ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطاركة (المقدمة).

الإســلام، واستمرت هذه الجهود بعد عمر وخاصة فى عهد الوالى أشرس بــن عبد الله السلمى (١٠٨-١١٠هـ/ ٧٢٧-٧٢٩م) إذ كان أول من أنشــأ الربــط والخوانق والمدارس وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية فى البلاد (١). ومــع كل ذلك فإن اللغة العربية لم تستطع أن تنتصر على اللغة التركية رغــم إســلام الأتراك وحماسهم الشديد له، وكل ما عمله الأتراك أنهم انتحلوا الخــط العربــى بحيث لا تجد تركيا على شئ من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغـــة القــرآن فــى سهولة (٢) وهنا لا بد أن نأتى إلى تلك النتيجة، وهى أن انتشار الإســـلام قــد أدى إلى انتشار اللغة العربية، ولكنه لم يؤد بالضرورة إلى التعريب.

ثانيا: هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة

يرى كل من كتبوا فى قضية التعريب أنه ساعد علـــى تعريــب البــلاد المفتوحة أن العرب الذين نزحوا إلى الأرض الجديدة استقر معظمهم فيها، ولــم يستمروا طويلا فى حالة عزلة، وإنما أخذوا يندمجون تدريجيــا مــع الأهــالى الأصليين. ولعل أول موجة نذكرها هى التى جاءت إلى مصر مع عمــرو بــن العاص، وعددها يتراوح بين ٣٥٠٠، ٤٠٠٠ مقاتل، ثم تبعتها إمدادات عمر بــن الخطاب وعددها أربعة آلاف، ثم أربعة آلاف أخرى، ثم بعـــض المتطوعيــن، فكان مجموعهم عند الفتح زهاء اثنى عشر ألفا وثلاثمائة، هم الذين بعثهم عمــر ابن الخطاب، وقيل غير ذلك (٣).

---

(١) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص١٢٩، ١٣٠.

(٢) دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب ص٢٥٥.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (ط ســـنة ١٩٣٧) ج١ ص٩ البلاذرى: فتوح البلدان ص٢١٣.

وفى سنة (٢٢هـ-٦٤٢م) كان عثمان بن عفان قد أرسل عبد الله بن أبى سرح لغزو النوبة، وكان معه عشرون ألف مقاتل، وهذا يعنى إرسال عدد آخر من العرب إلى مصر ([1]).

وفى عهد معاوية كان عدد من فى الفسطاط وحده من العرب أربعين ألف مقاتل إبان ولاية مسلمة بن مخلد ([2]).

وكان عدد اليمنيين ووحدهم فى الإسكندرية زهاء سبع وعشرين ألفا معظمهم من الأزد، ثم جاء من بعدهم جماعة من لخم بن عدى التى كان المقريزى منها ([3]).

وفى عهد هشام بن عبد الملك إبان ولاية الوليد بن رفاعة الفهمى على مصر (١٠٩ - ١١٧هـ) وهو من قيس استقدم من قيس مائة أهل بيت من بنى نصر، ومائة أهل بيت من بى سليم، فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع، فشد ذلك أقاربهم فجاء منهم إلى مصر خمسمائة بيت آخرون، واستمرت الهجرة وفدا بعد وفد حتى بلغت عدتهم فى عام واحد (١٥٠٠) بيت فى بلبيس وضواحيها،

([1])عبد العال محمد عبد العال الجبرى: حركة التعريب فى مصر حتى القرن الرابع الهجرى. رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم. جامعة القاهرة سنة ١٩٨٧ تحت رقم ٤٧٤٥ ص١٠١.

([2]) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ط المعارف الفرنسية ١٨١٤م تحقيق ماسية ص١٠٢ المقريزى: الخطط المقريزية المسماة المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ط النيل الأهلية سنة ١٢٤٤ ج١ ص٩٤ نزار الحديثى: أهل اليمن فى صدر الإسلام ١٦٩.

([3]) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم ط بيروت ١٩٥٦ ج٢ ص٢٥٦. المقريزى: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب. ط أولى عالم الكتب سنة ١٩٦١ ص٣٥.

وأكثرهم من سليم، وفى عهد مروان بن محمــــد بلـــغ القيســيون فــى بلبيــس وضواحيها ثلاث آلاف بيت، وقد كانت القبائل الوافدة على مصـــر حتـــى آخـــر عهــد بنى أمية سنة (١٣٢هــ-٧٥٠م) ببطونها وعشائرها ٢٢ قبيلـــة: ســـبع قبائل من قريش معظمهم من بنى أمية، وسبع من قيـــس عيـــلان وقبيلـــة مـــن جهـــينة، وثنتان من الأزد وثلاث من حمير، وواحدة من لخـــم، وواحـــدة مـــن أفنـــاء، وكل قبيلة آلاف.

وفى العصر العباسى الأول من (١٣٢-٢٤٢هــ) كانت القبائل العربيـــة التى وفدت إلى مصر ٣٣ قبيلة ([١]) وقد أدت كثرتهم إلى أن ثار عـــرب قيـــس على الضرائب وحرضوا الأقباط على رفض دفع الضرائب ســـنة (٢١٦هـــ-٨٣١م) ولم يتمكن الوالى من إخضاعهم، الأمر الذى اضطر الخليفة المـــأمون إلى المجئ إلى مصر بنفسه لتفقد الموقف، وكان ذلك فى المحرم سنة ٢١٧هـــ وفى عهد الدولة الطولونية كان الوافدون العرب يزدادون باستمرار ([٢]).

بالإضافة إلى هذا أن العرب أقاموا لأنفسهم مراكز جديدة فى الولايـــات التى فتحوها مثل الفسطاط والقيروان والبصرة والكوفة.

ولم يتخذوا من هذه المراكز مواقع يتحصنون داخلها وإنما غـــدت هـــذه المدن بعد قليل موطنا للعرب ولغير العرب ([٣]). وما زالت محلـــة كثـــير مـــن العرب تحمل أسماءها العديد من مدن مصر وقراها ([٤]).

([١]) عبد العال محمد عبد العال الجبرى: حركة التعريب ص١٠٢، ١٠٣.

([٢]) أحمد لطفى السيد: قبائل العرب فى مصر، الجزء الأول ط أولى ص ٩، ١٠.

([٣]) دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب ص٢٤٩.

([٤]) سمير عبد الرازق القطب. أنساب العرب ط- بيروت مكتبة دار البيان للطباعـــة والنشـــر ص٤٤٠.

كما يرى هؤلاء الذين كتبوا فى قضية التعريب أنه ساعد على تعريب البلاد المفتوحة أن العرب الذين نزحوا إلى الأرض الجديدة واستقروا فيها لم يستمروا طويلاً فى حالة عزلة، وإنما أخذوا يندمجون تدريجياً مع الأهالى الأصليين، ومع بداية القرن الثانى الهجرى أخذ هؤلاء العرب يقلعون عن ترفعهم وتعاليهم، واختلطوا بأبناء البلاد الأصليين وشاركوهم حرفهم التقليدية من زراعة وغيرها، بل لقد تزاوجوا معهم، مما ساعد على تعريب البلاد المفتوحة، وفى تلك يقول المقريزى: "لم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى ملوك قيسا بالجوف الشرقى فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر وضواحيها ([1]).

لكن هذا القول مردود عليه بأن العرب مهما بلغ عددهم فى بلد من البلدان فهم قلة بالنسبة لأهالى كل بلد من تلك البلدان، وسأكتفى فى هذا الصدد بضرب مثل واحد يستدل منه على ذلك، وهى رسالة أرسلها علقمة ابن يزيد والى الإسكندرية إلى معاوية بن أبى سفيان فى عهد خلافته يقول له فيها ما نصه: "إنك خلفتنى بالإسكندرية وليس معى إلا اثنا عشر ألفا ما يكاد بعضنا يرى بعضا من القلة" ([2]). إننا نعلم أن القبائل العربية انساحت فى كل البلدان، وكان منهم فى فارس ما يفوق عددهم فى مصر، فقد كانت طلائع القوات التى دخلت العراق هى جيش خالد بن الوليد الذى كان يضم صفوة المسلمين من المهاجرين والأنصار، كانت تلك هى النواة الأولى لجيش العراق، وقد أصابها بعض التغيير، فقد أذن خالد بالعودة لمن أراد، فعاد أهل المدينة

([1]) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج٢ ص، دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب ٢٤٨.

([2]) المصدر السابق ج١ ص١٦٨.

ومـــا حولها، واضطر خالد أن يطلب المدد من أبى بكر، وكتب إلـــى الأمـــراء الأربعة: حرملة وسلمى والمثنى ومذعور باللحاق به، فكانوا فى ثمانيــــة آلاف من ربيعة ومضر، وكان هو فى ألفين معه فبلغ الجيش عشــــرة آلاف. ودعـــا عمر الناس للقتال مع المثنى، وبدأت طبقات جديدة من المقاتلـــة تنضـــم إلـــى جيــش العراق، كان البعث الأول من أهل المدينة وما حولها ألف رجل بقيـــادة أبى عبيد بن مسعود. وكان البعث الثانى من أهل الردة.

وبعد الجسر بذل عمر جهدا كبيرا فى استنفار القبائل للقتـــال فخرجــت الإمدادات الآتية: جرير بن عبد الله البجلى فى قوم من بنى بجيلـــة. وعصمـــة بـــن عبد الله فيمن تبعه من بنى ضبة. ونفر من أهل الردة. كنانة والأزد فـــى سبعمائة. هلال بن عقلة التميمى فيمن اجتمع إليـــه مـــن الربـــاب بـــن المثنـــى الجشـــمى ومعه قوم من بنى سعد. عبد الله بن السهمين فى قوم مـــن جثعـــم. ربعى وأبنه شبث فى أناس من بنى حنظلة. ربعى بن عامر بن خالد المعنـــود فى بنى عمرو. ابن الهوبر والمنذر بن حسان فى بنى ضبة. قرط بن جمـــاح فى عبد القيس. أنس بن هلال النمرى فى أناس من النمر. ابن مردى التغلبـــى فى بنى تغلب، وبهذه الإمدادت تحقق نصر البويب (١).

أما بعوث القادسية فكان فيها سعد بن أبى وقاص على صدقات هـــوازن وألف من قيس عيلان عليهم بشر بن عبد الله، وثلاثة آلاف ممن قدم عليه مـــن اليمن والسراة. كما أمد عمر سعدا بعد خروجه بألف يمانى وألفى نجـــدى مـــن غطفان وقيس. وانتخب سعد من بنى تميـــم والربـــاب أربعـــة آلاف. وكـــان

---

(١) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص٣٩.

المثنـــى فى ثمانية آلاف من ربيعة. كما قدم سعد الأشعث بن قيس فـــى ألــف وسبعمائة من اليمن، وقد بلغ جيش القادسية بضعة وثلاثين ألفا.

وتوالت الإمدادات بعد القادسية، وقدم هاشم بن عتبة ومعـــه قيــس بــن المكشوح المرادى فى سبعمائة، ثم تتابع أهل العراق من أصحاب الأيـــام مــددا لأهل القادسية (١).

تلك هى الطلائع الأولى التى انتشرت فى جميع أنحـــاء إيـــران وكـــانت النواة الأولى للمهاجرة الذين استقروا فيها بعد أن تحقق لـــهم النجـــاح العظيـــم. وقـــد استمرت الهجرة العربية بعد عمر بن الخطـــاب، ووضحـــت فـــى عـــهد عثمـــان، ويكفى أن نذكر أن الثورة التى أطاحت بعثمـــان جـــاءت مـــن طبقـــة المقاتلة أو طبقة المهاجرين التى زادت زيادة كبرى فى عهد عثمـــان، واســـتمر تيار الهجرة طوال العصر الأموى، ففى عهد معاوية مثـــلا تمـــت هجـــرة الأزد الذين استقروا بخراسان، وأصبحوا عاملا هاما فى الحياة السياسية والاجتماعيـــة هناك. وفى خراسان وحدها تجمع نحو من مائتى ألف أسرة عربية. ولما فتـــح المسلمون أذربيجان وطنوا فيها فريقا من العرب من أهـــل العطـــاء والديـــوان وأمروهم بدعاء الناس الإسلام (٢).

وعلى كل حال اتجه الامويون اتجاها واضحا إلـــى توطيـــن العنصـــر العربى فى مختلف أنحاء إيران. ووضحت هذه السياسة على الخصـــوص فـــى

---

(١) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص٣٩.

(٢) المرجع السابق ص٤٠.

عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى. وما كاد القرن الأول الهجرى ينتهى حتى انتشر العنصر العربى فى إيران كلها من الشرق إلى أقصى الغرب ([1]).

وبالرغم من تلك المقارنة بين العرب الذين استقروا بمصر والعرب الذين استقروا بإيران، والتى يمكن أن نتبين منها بسهولة تفوق الأعداد التى استقرت فى إيران على الأعداد التى استقرت بمصر، ومع ذلك فقد تم تعريب مصر ولم يتم تعريب إيران!؟.

نخلص مما سبق أن هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة واندماجهم مع الأهالى الأصليين لتلك البلاد أدى إلى انتشار اللغة العربية ولكنه لم يؤد إلى التعريب.

ثالثا: تعريب الدواوين

ومن الآراء التى ظهرت فى تفسير ظاهرة التعريب فى البلاد المفتوحة حرص الخلافة الإسلامية ابتداء من عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٥-٧٠٥م) على تعريب الدواوين ([2]).

فقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته أن عبد الملك بن مروان أمر واليه على الأردن سليمان بن سعيد بنقل ديوان الأردن إلى العربية ([3]) الأمر الذى أدى

([1]) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص٤٠.

([2]) دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب ص٢٥٧، عبد العال محمد عبد العال الجبرى: حركة التعريب ص٢٨٣.

([3]) ابن خلدون: المقدمة (طبعت الشعب) ص   دكتور سعيد عاشور: المرجع السابق نفس الصفحة، عبد العال محمد عبد العال الجبرى: المرجع السابق نفس الصفحة.

إلى تعريب اللسان ونشر الخط العربى فى كل البلدان التى توالى فيها بعد ذلـــك نقل دواوينها إلى اللغة العربية، ذلك أن: "استخدام اللغة العربيـــة فـــى الشـــئون الإدارية كان وسيلة فعالة كبرى إلى نشر العلم بطـــراز معـــهود فـــى الكتابـــة العربيـــة، ومن الثابت أيضا أن هذا الطراز لم يتـــم تطـــوره الكـــامل بتحقيـــق حـــروف الهجاء حتى أواخر القرن الأول بعد الهجرة" ([١]).

لكن هذا القول مردود عليه بأننا نعلم أن الإغريق غزوا الشـــام ومصـــر أيام الإسكندر الأكبر وحكموها بعد ذلك مدة طويلة، وأن الرومان غـــزوا كافـــة البلاد الواقعة فى شرق حوض البحر المتوسط وحكموها أيضا بعد ذلك بضعـــة قرون، وأن اللغة اليونانية كانت لغة الإدارة والحكم فى عهد البطالمة كما كـــانت اللغة اللاتينية أيضا لغة الإدارة والحكم فى عهد الرومان، ومع ذلك لم تحل اللغـة اليونانية أو اللغة اللاتينية محل اللغات المحلية التى كانت بمثابة لغات شعبية([٢]).

مثال آخر من العصر الإسلامى، وهو فارس، الذى حـــرص الأمويـــون على تعريب ديوانه وإن تأخر ذلك إلى سنة ١٢٤هـــ حيث تم بـــالفعل تعريـــب ديوان فارس بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك ([٣]). وقد استخدم العرب فـــى هذا الديوان بعض أهالى فارس من غير المسلمين وخصوصـــا فـــى الوظـــائف المالية، لأن فارس كانت بها طبقة الدهـــاقين التـــى عرفـــت بمهارتـــها الماليـــة

([١]) جب: خواطر فى الأدب العربى، بحث نشره صلاح الدين المنجد فى المنتقى فى دراســات المستشرقين (القاهرة ١٩٥٩) ج١ ص١٢٩.

([٢]) دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب ص٢٤٧.

([٣]) الجهشيارى: كتاب الوزراء والكتاب. الطبعة الأولى (القاهرة ١٩٣٨) ص٣٨.

ونبوغهـا فى أعمال الخراج ومعرفتها بالأسـرار الإداريـة والسياسـية، وقـد استخدم أفراد هذه الطبقة فى عهدى بنى أمية والراشدين ([١]).

ومع ذلك لم يتم تعريب فارس فى يوم من الأيام. وإن أدت مثـل هـذه الإجراءات إلى انتشار اللغة العربية، ولكنها لم تؤد إلى التعريب.

رابعا: تفـوق الحضـارة الإسلامية

يتفق كل من كتبوا فى قضية التعريب أن ازدهار الحضارة الإسـلامية، واتساع نطاقها وتنوع آفاقها كان من العوامل التى أدت إلـى التعريـب. فـهذه الحضارة لم تترك ميدانا من الميادين ذات الخبرة الإنسانية لم تسهم فيـه بسـهم وافر، سواء الدراسات النظرية والعملية والأطعمة والأشربة والعقاقير والأسـلحة والفنون والصناعات والنشاط التجارى والبحرى.. ثم إن هذه الحضارة امتـدت ليستظل بها كثير من بلاد الشرق والغرب جميعا. ويعنينا فـى هـذا المقـام أن اللغة العربية كانت أداة تلك الحضارة العظيمة ([٢]).

لكن هذا القول مردود عليه بأن الملاحظ فى بناء الحضارة الإسـلامية أن العرب اضطروا إلى الأخذ من الحضارات السابقة عليها وخاصة فى نظم الحكـم والإدارة والحياة الاجتماعية والعلوم الفلسفية، وذلك عن الشعوب التى دانت لـهم ودخلت ضمن نطاق الخلافة الإسلامية ([٣]) فالعرب عندما غزوا مصر والشـام

([١]) البلاذرى: كتاب فتوح البلدان ص٣٠٨، ٣٠٩ دكتور حسـن أحمـد محمـود: الإسـلام والحضارة العربية ص٣٢.

([٢]) دكتور سعيد عاشور الإسلام والتعريب ص ٢٥٣.

([٣]) أحمد أمين: فجر الإسلام (الطبعة العاشرة ١٩٦٥) ص٩٦. دكتور عاشور ص٢٥٦.

والعراق وفارس إبان حركة الفتوح الإسلامية فى القرن السابع للميلاد كانوا أقـل مدنية من شعوب هذه البلاد التى فتحوها.

ثم لماذا تم تعريب مصر والشام والعراق، ولم يتم تعريب بلاد فـارس، فإذا قيل لأنهم أصحاب حضارة عريقة راسخة فإن مصر والشام والعراق كـانوا أعظم عراقة وأقدم رسوخا عن حضارة فارس.

وهكذا ننتهى بأن تفوق الحضارة الإسلامية قد أدى إلى انتشـار اللغـة العربية فى كل ربوع العالم، ولكنه لم يؤد إلى التعريب.

خامسا: لغة الغالبين الفاتحيـن

اتفق معظم الذين كتبوا فى قضية التعريب أن اللغة العربية كـانت هـى لغة الغالبين الفاتحين، سادة البلاد وحكامها الجدد، فالمفروض أن ثمـة علاقـات متبادلة بين الحاكم والمحكوم تتطلب قدرا من التفاهم المشترك الذى لا يتحقـق إلا داخل إطار لغة متفق عليها بين الطرفين، ولما كان الحكام الجـدد لا يعرفـون لغـة إلا العربية، فل يبق أمام الشعوب التى خضعت لهم سوى تعلـم العربيـة، هذا فضلا عما يقال من أن ثمة عقدة نفسية عند البشر تجعل الضعيـف شـغوفا بمحاكـاة القوى. والمغلوب مولع دائما أبدا بتقليد الغالب.

لكن هذا القول مردود عليه بأن ثمة أمثلة عديدة فى التاريخ – قبل حركة الفتوح الإسلامية وبعدها – تثبيت أن تحول شعوب بأكملها إلـى لغـة الحكـام الفاتحين، ونبذها لغة الآباء والأجداد ليست القاعدة الغالبة فى التـاريخ، ونحـن نتفق مع الدكتور سعيد عاشور فى الأمثلة التى أوردها ردا على مثل هذا القـول:

"فالإغريق غزوا الشام ومصر أيام الإسكندر الأكبر، وحكموها بعد ذلك مدة طويلة، ومع ذلك لم تنجح اللغة اليونانية فى محو اللغات القائمة فى البلاد - مثل الأرامية والمصرية.

والرومان غزوا كافة البلاد الواقعة فى شرق حوض البحر المتوسط، ومع ذلك فإن الحكم الرومانى الذى استمر بضعة قرون لم يسفر عن إحلال اللغة اللاتينية محل اللغات المحلية القديمة التى كانت بمثابة لغات شعبية، أو محل اللغة اليونانية التى غدت - إلى حد كبير - لغة خاصة رجال العلم والفكر. وكل ما هنالك أن اللغة اللاتينية غدت لغة الإدارة والحكم فضلا عن الجيش. فإذا ما انتقلنا إلى أواخر العصور الوسطى ومشارف العصور الحديثة وجدنا الأتراك العثمانيين يغزون الوطن العربى ويحكمونه بضعة قرون، ومع ذلك لم تنجح لغتهم فى أن تحظى ببعض السيادة (١).

وهنا ننتهى إلى أن اللغة العربية رغم أنها كانت لغة الغالبين الفاتحين فإن ذلك لم يؤد إلى التعريب، وإن أدى ذلك إلى انتشار اللغة العربية فى تلك البلاد المفتوحة.

إذن ما هو السبب الذى سمح لعوامل انتشار اللغة العربية أن تأخذ مسيرتها نحو التعريب؟

أشهر النظريات الحديثة فى مجال القرابة اللغوية هى نظرية مكس مولر Max Muller والتى تراعى فى تقسيم اللغات إلى فصائل أن يجمع أفراد

---

(١) الدكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب ص٢٤٧.

كل فصيلة منها صلات قرابة لغوية فتتفق فى أصول الكلمـــات وقواعــد البنيـــة وتركيب الجمل ٠٠ وما إلى ذلك ويتكون من الأمـــم الناطقـــة بـــها مجموعـــة إنســـانية متميزة ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة وتؤلف بينها طائفـــة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية. وعلى هـــذه الأســس ترجـــع نظريـــة مكس جميع اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل:

الفصيلة السامية الحامية.

الفصيلة الهندية الأوربية.

الفصيلة الطورانية (١)

أولاً: الفصيلة السامية الحامية:

تشمل هذه الفصيلة مجموعتين من اللغات: إحداهما مجموعـــة اللغـــات السامية وثانيتهما مجموعة اللغات الحامية.

١ – اللغات السامية الشمالية وتشمل اللغـــات الأكاديـــة أو الأشـــورية البابليـــة واللغات التعاونية (العبرية والفينقية) واللغات الآرامية.

٢ – اللغات السامية الجنوبية وتشمل العربية واليمنية القديمة واللغـــات الحبشـــية السامية.

وأما مجموعة اللغات الحامية، فتنتظم ثلاث طوائف:

١ – اللغات المصرية، وتشمل المصرية القديمة والقبطية.

٢ – اللغات الليبية أو البربرية، وهى لغات السكان الأصلييـــن لشـــمال أفريقيـــا (طرابلس – وتونس – والجزائر ومراكش والصحراء والجـــزر المتاخمـــة لهـــا).

---

(١) الدكتور على عبد الواحد وافى: نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ص٦١، ٦٢.

٣ - اللغات الكوشيتية (نسبة إلى كوش وهو أحد أولاد حام) وهى لغات السكان الأصليين للقسم الشرقى فى أفريقيا المحصورة بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر (ما عدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية) فتشمل اللغات الصومالية ولغات الجالا والبدجا ودنقلة، والأجاو، والأفار أو الساهو والسيداما ... إلخ.

أما وجوه الشبة بينها وبين اللغات السامية فيظهر فى نواحى كثيرة من أهمها ما يلى:

١ - تشبه اللغة المصرية القديمة اللغات السامية فى الضمائر (التاء للمخاطب المفرد والنون لجمع المتكلمين ... الخ) وأسماء العدد وكثير من أسماء الذوات وخاصة الأسماء المؤلفة من صوتين (يم، فم، ماء) وفى كثير من قواعد الصرف والتنظيم (ومن ذلك تأنيث الاسم والصفة بالتاء، وتكوين المضارع بوضع الضمير فى أول الفعل)، وتشترك معها كذلك فى أن أهمية الأصوات الساكنة تزيد كثيرا على أهمية أصوات اللين فى دلالة مفرداتها ونطقها.

٢ - اكتشف شمبليون أن الحروف الساكنة هى وحدها التى تكتب فى اللغة الهيروغليفية مع إغفال الحروف المتحركة شأنها فى ذلك شأن العربية القديمة والعبرية ([1]). كما اكتشف أيضا وجود بعض أوجه الشبه بين الخط العربى القديم والخط الديموطيقى، وهو خط مختصر للهيروغليفية شاع استخدامه فى الوثائق الشعبية فى مصر القديمة ([2]).

([1]) جان فيركوتير: كتاب مصر القديمة. ترجمة ماهر جويجاتى ص١٥.

([2]) المرجع السابق ص١٤.

ولذلك ذهب كثير من العلماء إلى اعتبار اللغة المصرية واللغات السامية مجموعتين من فصيلة واحدة. وقد يفسر ذلك السبب فى تنازل المصريين عن لغتهم بعد الفتح الإسلامى بينما احتفظوا من قبل بلغتهم أثناء خضوعهم للإغريق ثم الرومان من بعد ذلك.

وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فاعتبر المصرية القديمة لغة سامية. ومن هؤلاء العلماء إرمان Erman الذى يعد حجة فى الدراسات المصرية القديمة. فقد رأى أن اللغة المصرية القديمة التى وصلتنا هى لغة الغزاة من الساميين الذين أخضعوا السكان الأصليين وتغلبت لغاتهم على لغاتهم. غير أن تأثر لغتهم بهذه اللغات فى أثناء صراعها معها، والازدهار السريع للحضارة المصرية، وما أحاط بالمصريين من ظروف خاصة تختلف عن ظروف بقية السامين فى النواحى المادية والجغرافية والاجتماعية.. كل ذلك وما إليه قد عمل توسيع مسافة الخلاف بين المصرية القديمة من جه وبقية اللغات السامية من جهة أخرى.

ولقد كان عدم وجود حروف متحركة فى الكتابة المصرية القديمة سببا فى تقييد حرية اللغة وحرمانها من تقبل الألفاظ الجديدة، فظلت جامدة لا تساير التطور، وخاصة بعد أن انفتح عليها العالم القديم. الأمر الذى أدى بالمصريين أن يحاولوا اقتحام تلك العقبة بأن اتخذوا الحروف الإغريقية لكتابة لغتهم، ولما وجدوا أن الأبجدية الإغريقية لا تفى بحاجة جميع أصوات اللغة المصرية القديمة أضافوا إليها ستة حروف من الكتابة الديموطيقية وهكذا ولدت اللغة القبطية فى القرن الثالث الميلادى. وربما يفسر لنا ذلك الجمود اللغوى فى اللغة المصرية القديمة السبب فى تدهور الحضارة الفرعونية قبيل الغزو الإغريقى لمصر.

٤ – وقد ظهر للباحثين وجوه شبة كثيرة بين اللغات السامية مـــن جهـــة وكل من مجموعتى اللغات البربرية والكوشية من جهة أخـــرى، وخاصـــة فـــى النواحى المعلقة بالصرف والاشتقاق. غير أن وجوه شبههما باللغـــات الســـامية أقل كثيرا من وجوه الشبه بين السامية والمصرية القديمة – وقد أختلف العلمـــاء فى تعليل ذلك:

فبعضهم يرى أن اللغات السامية والمصرية والبربرية والكوشـــية هـــى أربع مجمـــوعات لفصيلة واحدة. غير أن إنفصال البربريـــة والكوشـــية عـــن السامية قد حدث قبل انفصال المصرية عن السامية بزمن طويل، ولذلك كـــانت مسافة بعدهما عن السامية أكبر من مسافة بعد المصرية عنها ([1]).

ثانيا: الفصيلة الهندية الأوربية

تشمل هذه الفصيلة ثمان طوائف من اللغات هى:

١ – اللغات الآرية (أحدهما شعبة اللغات الهنديـــة والأخـــرى شـــعبة اللغـــات الإيرانيـــة القديمة والحديثة) ولكثرة وجوه الشـــبة بيـــن هـــاتين الشـــعبتين عدهمـــا علماء اللغـــة طائفة واحدة.

٢ – اللغات الأرمنية.

٣ – اللغات الإغريقية.

٤ – الألبانية.

٥ – اللغات الإيطالية.

٦ – اللغات الكلتية (التى كانت لشعوب الكلت، وقد طغت عليـــها الآن اللغـــات الفرنسية والإنجليزية والأسبانية، ولكن نفى بعض أشكال منها فى كثير مـــن

([1]) دكتور على عبد الواحد وافى: فقه اللغة ص١٧، ١٨.

اللهجات المحلية بأيرلندا وويلز ومنطقة ويلز ومنطقة البرينون فى الشمال الغربى من فرنسا على سواحل الأطلانطيقى).

٧ – اللغات الجرمانية.

٨ – اللغات البلطيقية السلافية (أحدهما شعبة اللغات البلطيقية، وهى الليتوانية والليتونية والبروسية القديمة، والأخرى شعبة اللغات السلافية او الصقلبية: وهى السلافية القديمة والروسية والبولونية والتشيكية والسربية والكرواتية، والبلغارية الحديثة).

مما سبق يتضح أنه مهما أدت العوامل إلى انتشار اللغة العربية بين أهالى الفصيلة الهندية الأوربية، فإنه سيظل عامل القرابة اللغوية حائلا بين انتشار اللغة العربية والتعريب لذلك كان من الصعب على أهل فارس، وأهل أسبانيا رغم انتشار اللغة العربية فيهما كما سبق القول أن يتحول عندهم هذا الانتشار للغة العربية إلى تعريب.

ثالثا: اللغات الطورانية

أطلق مكس مولر، وأيضا بونسى Bunsen اسم اللغات الطورانية على طائفة من اللغات الأسيوية والأوربية التى لا تدخل تحت فصيلة من الفصيلتين السابقتين، كالتركية والتركمانية والمغولية والمنشورية والفينية وهلم جرا. فاللغات الطورانية ليست إذن فصيلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة أى مجموعة ترجع إلى أصول واحدة، ويجمع ين أفرادها صلات تشابه وقرابة، بل هى أمشاج من لغات لا يؤلف بينها إلا صفة سلبية وهى عدم دخولها فى إحدى الفصيلتين السابقتين.

وأحدث نظرية فى هذا الصدد هى ما ذهبت إليها جمعية علم اللغة بباريس فى موسوعتها (لغات العالم) إذ قسمت جميع اللغات الإنسانية الخارجة عن الفصيلتين السامية الحامية والهندية الأوربية إلى تسع عشرة فصيلة، وهى:

١ – فصيلة اللغات اليابانية.

٢ – فصيلة اللغات الكورية.

٣ – لغة الأينو (وهى لغة سكان جزر هوكادو وساخلين وشكوتان).

٤ – فصيلة اللغات الصينية.

٥ – فصيلة اللغات الأسترالية الأسيوية (التى يتكلم بها القسم الأسيوى الجنوبى المنحدر إلى استراليا).

٦ – فصيلة اللغات الدرافيدية (لغات بعض الشعوب التى تقطن جنوب بلاد الهند قبل أن يهاجر إليها الآريون).

٧،٨– اللغات القوقازية التى ليست سامية ولا هندية أوربية.

٩ – فصيلة اللغات الأسيوية القديمة غير سامية ولا هندية أوربية (ومن أهم لغات هذه الفصيلة السومرية).

١٠ – فصيلة اللغات التركية والمغولية والمنشورية.

١١ – فصيلة اللغات الفينية والأجرية والساموئدية (ويتكلم بهذه اللغات فى الحوض الأوسط لنهر الفولجا ويدخل فى هذه الفصيلة اللغات الفنلدية).

١٢ – لغة الباسك أو الأسكارا.

١٣ – اللغات الهيبيربورية أو لغات أقصى الشمال، وهى لغات سيبين وما يليها من أقاليم المنطقة المتجمدة الشمالية.

١٤ – اللغات الميلايوية (وتشمل هذه الفصيلة اللغـــات الأندونيســية، واللغـــات الميلانيزية، واللغات الميكرونيزية، واللغات البولينيزية ولغات البابو).

١٥ – لغات سكان أستراليا الأصليين. ١٦– لغات سكان أمريكا الأصليين.

١٧ – لغة السودان وغانة (ومنها لغات النوبة).

١٨ – اللغات البنطوية (ويتكلم بها سكان القسم الجنوبى من أفريقيا فـــى منطقـــة واسعة على شكل مثلث ينطبق رأسه على رأس الرجاء الصـــالح، ويمتـــد ضلعه على الساحل الشرقى لأفريقيا حتى حدود بلاد الصومال، وضلعـــه الأيسر على الساحل الغربى حتى مدينة دوالا ببلاد الكمرون).

١٩ – لغات البوشيمان والهوتنتوت والنيجريين (وهى لغات القبـــائل الأفريقيـــة الجنوبية التى تقطن الغابات الاستوائية والمناطق الصحراوية)([1]).

وبعد هذا العرض السريع للغات الطورانية نستطيع أن نتبيـــن الأســـباب العلمية التى منعت اللسان التركى أو اللسان النوبى من أن يتحول إلـــى اللســـان العربى، وذلك لعدم وجود قرابة لغوية بين اللسان التركى الذى يتبـــع الفصيلـــة اللغوية الطورانية وبين اللسان العربى الذى يتبع الفصيلـــة اللغويـــة الســـامية – الحامية. وكذلك الحال بالنسبة للسان النوبى الذى يتبع الفصيلة الطورانية.

هنا نأتى إلى النتيجة النهائية من هذه الدراسة فنقول أن القرابة اللغويـــة التى كشفت عنها الدراسات اللغوية الحديثة هى التـــى ســـمحت لانتشـــار اللغـــة العربية أن يتحول إلى تعريب، كما أننا يمكن أن نتنبأ من خلال تلك الدراســـة أن الصومال يمكنها التحول إلى اللسان العربى حيث أن اللغة الصومالية وهى اللغـــة الكوشيتية تتبع الفصيلة السامية الحامية.

([1]) الدكتور على عبد الواحد وافى : نشأة اللغة، ص ٨٣، ٨٩.

القضيـــة الرابعـــة

لغـــز القضــــاء على الخـلافـــة

شاءت الأقدار أن تقوم الخلافة الإسلامية على أرض جزيرة العرب، وشاءت الأقدار أن ينتقل مقر الخلافة إلى خارج جزيرة العرب بسرعة مذهلة.. ورغم بعض المحاولات التى قامت فى جزيرة العرب لتعيد مقر الخلافة إلى المدينة أو مكة، فإن خروج مقر الخلافة من الجزيرة كان خروجاً بلا عودة !؟

ثم شاءت الأقدار أن تكون وفاة الخلافة على أرض جزيرة العرب بعد عمر مديد تنقلت فيه حاضرة الخلافة من المدينة المنورة إلى الكوفة ثم إلى دمشق ثم إلى بغداد، ومن بغداد إلى القاهرة إلى الأستانة. ثم لما آن للخلافة أن تعود إلى موطن الميلاد كانت الوفاة، ولا عزاء !!!

وهذه الدراسة محاولة للتعرف على الدور الذى لعبته بريطانيا فى تلك القضية. والتى قد تبين منها أن المخطط البريطانى انقسم إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى هى العمل على اضطلاع جزيرة العرب بمهمة مناهضة الخلافة العثمانية. لذلك عملت بريطانيا على تكوين جبهة معادية للخلافة العثمانية، وذلك بعودة آل سعود إلى عرشهم فى نجد بعد سنوات من لجوئهم إلى الكويت، لأن العائلة السعودية نهضت منذ البداية على أساس مناهضة الخلافة العثمانية. كما عملت بريطانيا أيضا على تولية الشريف حسين إقليم الحجاز، لأن الشريف حسين كان تطلعه السياسى أكبر من أن يحصل على حكم مكة، فقد كان يتطلع إلى منصب الخلافة الإسلامية.

أما المرحلة الثانية، فهى القضاء على الخلافة العثمانية فى المنطقة العربية.

وفى المرحلة الثالثة: حرصت بريطانيا على أن تكون هزيمـــة الخلافـــة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى وتقسيم أملاكها ليس فقـــط نهايـــة للخلافـــة العثمانية فى المنطقة العربية، بل نهاية للخلافة فى العالم الإسلامى.

المرحلة الأولى: اضطلاع جزيرة العرب بمهمة مناهضـــة الخلافـــة العثمانية

انتهت موقعة المليدا سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م بانتصار محمد بن الرشـــيد أمير الأحساء وحليف الدولة العثمانية، على عبد الرحمن آل سعود، إمام نجـــد، كما مهدت هذه الموقعة الحاسمة الطريق لابن الرشيد للسيطرة على نجـــد لعـــدة سنوات وذلك أن الإمام عبد الرحمن قرر الخروج من نجد لأن قواتـــه بعـــد أن تبين له أن فيها لم تعد كافية للوقوف فى وجه ابن الرشيد ([1]).

وقد حاول ممثل الدولة العثمانية فى الإحساء أن يفيد من الوضع الجديـــد فعرض على الإمام عبد الرحمن مساعدة الدولة العثمانية له ليكون أمـــيراً علـــى الرياض فى ظل سيادة الدولة العثمانية وحمايتها، وتعهد له بمده بالسلاح وغـــيره من أسباب القوة، ولكن الإمام عبد الرحمن إعتذر عن قبول هـــذا العـــرض لأن العائلة السعودية نهضت على أساس الاضطلاع بمهمة تحريـــر شـــبة الجزيـــرة العربية من السيطرة العثمانية، وتوحيدها وإنشاء دولـــة عربيـــة إســـلامية ذات

([1]) أحمد عسه: معجزة فوق الرمال، المطابع الأهلية اللبنانيـــة. الطبعـــة الأولـــى ١٩٦٥، ص٤٤، دكتورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القـــرن العشرين، دار الشروق، جدة. الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٧٢.

ســيادة فيها، مما جعله يؤثر أن يضرب فى البادية ([1]) حتى ينتهى به المقـــــام إلى الكويت التى بقى فيها زهاء عقد من الزمان([2]).

فى تلك الفترة احتدم الصراع بين الروس والألمان والإنجليز. فروســيا تسعى جاهدة للوصول إلى مياه الخليج العربى، وألمانيا تحـــاول بالاتفــاق مـــع العثمانيين مد سيطرتها على البلاد العربية، وذلك عن طريق إنشاء خط حديـــدى يصل من برلين إلى بغداد، ثم الإنتهاء به فى الكويت. بينمـــا يعمــل الإنجلــيز لتمكيــن سلطانهم فى إمارات الخليج العربية بمعارضة مد الخط الحديدى إلـــى الكويت ([3]). الأمر الذى اضطر الدولة العثمانية أن تأخذ موقفا إيجابيا مــن هــذا الصراع قبل أن تفقد نفوذها فى المنطقة، لذلك أوعز العثمانيون إلى عبد العزيــز بن الرشيد حاكم إقليم نجد أن يضم الكويت إلى ولايته حتى يمتد ســـلطانه إلـــى البحر الذى يدور حوله الصراع. لكن الإنجليز كانوا أســـرع مــن العثمــانيين، واستنجدت الكويت بالإنجليز فخلصت الكويـــت للإنجلــيز وأصبحــت محميــة بريطانية. فى هذا الوقت طلب من عبد العزيز بن الإمام عبد الرحمن آل ســعود الذى كان يعيش مع والده فى الكويت طلب منه أن يشن هجوما عســكريا علـــى ابن الرشيد فى الرياض ([4]).

ولا شك فى أن بقاء ابن الرشيد فى حكم نجد والإحساء يقلق الكويت كمـا يقلق بريطانيا، وفى الوقت نفسه لم يجد الابن الفتى عبــد العزيــز إلا الســيف

([1]) أحمد عسه: معجزة فوق الرمال، ص٤٤.

([2]) المرجع السابق، ص٤٥.

([3]) المرجع السابق، ص٤٦.

([4]) إبراهيم فصيح الحيدرى: عنوان المجد فى أحوال بغداد والبصرة ونجد، ص ٨٥.

ليستعيد ملك عائلته آل سعود من يد المغتصب ابـــن الرشـــيد. وهكـــذا التقـــت مصلحة بريطانيا ومصلحة عبد العزيز آل سعود فى القضاء على ابن الرشيد.

ويبدو أن الخطة التى وضعت للقضاء على ابن الرشـــيد كـــانت خطـــة مرحلية فقد بدأ عبد العزيز آل سعود مخاطرته، بالهجوم علـــى الريـــاض أولاً، لبعدها عن مركز قوة ابن الرشيد الذى كان يسكن حائل شمال نجد، وثانياً، لمـــا فى الرياض وما حولها من الأنصار والمخلصيـــن لآل ســـعود ([1])، وثالثـــاً، أن منطقة الرياض كانت لا تدخل فى دائرة اهتمام الدولة العثمانية أو غيرهـــا مـــن الدول، الأمر الذى يجعل تحرك عبد العزيز آل سعود فى تلك المنطقة لا يـــترتب عليه أى تفجير للموقف الدولى.

وكان فشل محاولة عبد العزيز الأولى فى الدخول إلى الريـــاض بمثابـــة جس نبض لرد الفعل الدولى – حتى إذا ما اطمأن للموقف الدولى عاود الكـــرة مرة أخرى فى السنة التالية فكتب الله له النصر، ودخل الرياض سنة ١٩٠٢هـ/ ١٩٠٥م وخرج إليه الناس فرحين مستبشرين بعـــودة آل سعود ([2]).

وقد استمر الصراع بين عبد العزيز وابن الرشيد على شكل مناوشـــات كانت تنتهى دائماً بفوز عبد العزيز حتى أصبح سيد منطقة نجـــد الوســـطى ([3])

([1]) حافظ وهبة: جزيرة العـــرب فـــى القـــرن العشـــرين، القـــاهرة ١٩٥٥ ص٢٤٤-٢٤٦، دكتـــورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص٧٩.

([2]) الألوسى: تاريخ نجد، تحقيق: محمد بهجت الأثرى، القاهرة، ١٣٤٧هـ، ص٣٢.

([3]) إبراهيم عيسى: عقد الدرر، ص٧١.

بالإضافة إلى المنطقة الجنوبية والتى تجمع الخرج والحوطة والحربى والأفلاج ووادى الدواسر ([١]).

لذلك رأت الدولة العثمانية بعد أن أثارت انتصارات عبد العزيز مخاوفها ضرورة تعضيدها لابن الرشيد عسكريا بعد أن أثبتت الأحداث تفوق عبد العزيز عليه فأرسلت إلى ابن الرشيد جيشا تركيا مزودا بالمال والأسلحة الحديثة، لكن الهزيمة حلت بابن الرشيد والجيش العثمانى فى موقعتى البكيرية والشنانة ([٢]) اللتان تعتبران من المواقع الفاصلة فى تاريخ نجد سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، وبدلا من زيادة مساعداتها لابن الرشيد حاولت الدولة العثمانية أن تخطب ود عبد العزيز، وطلبت منه الدخول معها فى مفاوضات، وهذا يدل على جهل الدولة العثمانية فى تلك الفترة باللعبة الدولية - وقد كانت نصوص هذه المفاوضات الاعتراف بسلطان عبد العزيز على ما فى يده من نجد، وأن يكون للدولة العثمانية فيها مستشارون ([٣]). ورغم أن هذه المفاوضات باءت بالفشل طبعا، عاودت الدولة العثمانية فطلبت من عبد العزيز التفاوض مرة ثانية فلم تنتهى إلى شئ. الأمر الذى أدى إلى استئناف القتال من جديد بين عبد العزيز وابن الرشيد، والذى قتل فيه ابن الرشيد (عبد العزيز بن متعب) فى موقعة

([١]) دكتورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص٨٠.

([٢]) أمين الريحانى: تاريخ نجد الحديث وملحقاته، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٥٤، ص١٤٠-١٤٨.

([٣]) صلاح الدين المختار تاريخ المملكة العربية السعودية، ماضيها وحاضرها، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٧٦، ١٩٧٥ ج٢، ص٣٢.

روضة المهنا سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، وأصبح عبد العزيز آل سعود بذلك سيد نجد شمالها وجنوبها ([1]). أما آل الرشيد فقد انحصر ملكهم فى جبل شمر.

ولم يكتف عبد العزيز بما حرره من إقليم نجد، بل أخذ يتطلع إلى المنطقة الشرقية، حيث كانت الإحساء تمثل ضرورة حيوية كمنفذ بحرى ينقذه من أى حصار للدولة العثمانية. فانتهز فرصة انشغال تركيا فى حربها مع إيطاليا سنة ١٣٢٩هـ /١٩١١م واضطرار الدولة العثمانية إلى سحب جزء من محمياتها فى الهفوف، وأخذ يرسل الحاميات العسكرية التى بسطت نفوذه على منطقة الإحساء ([2]).

وقد حاولت الدولة العثمانية استرجاع ما فقدوته. فعاودت الهجوم على عبد العزيز فى الإحساء، لكنها منيت بالهزيمة، وبذلك ثبتت أقدام عبد العزيز فى الإحساء التى أصبح بعد أن أستولى عليها، على اتصال مباشر بالإنجليز ([3]). وهنا لجأت الدولة العثمانية إلى سياسة المهادنة مع عبد العزيز فاعترفت به ومنحته رتبة الباشوية وأقرته حاكما على نجد وملحقاتها تحت السلطة العثمانية، على أن تكون الولاية من بعده لأولاده وأحفاده، وفى نفس الوقت راحت تشجع سراً آل الرشيد فى جبل شمر وتمدهم بالسلاح لمهاجمة نجد وغزوها ([4]).

([1]) دكتورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص٨١.

([2]) المرجع السابق، ص٨٢.

([3]) المرجع السابق، نفس الصفحة.

([4]) حافظ وهبة: خمسون عاما فى جزيرة العرب، القاهرة ١٩٦٠، ص٩٦.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٤م كان عبد العزيز سلطانا على نجد والإحساء في حين كانت الحجاز ولاية عثمانية وكان ابن الرشيد ما يزال يحكم جبل شمر، كما كانت عسير فى يد الأدارسة تحت السيادة العثمانية، وكانت بريطانيا تسيطر على معظم دول الخليج ([1]).

أما إقليم الحجاز الذى كان يحكمه الأشراف تحت السيادة العثمانية، فكان قد تولى الحكم فيه الشريف حسين بن على سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، وبعد أن قضى هو وأسرته زهاء خمسة عشر عاما فى استانبول بدعوة من السلطان عبد الحميد فقد كانت هذه هى عادة السلطان عبد الحميد. إذا ما شعر بخطورة من بعض كبار خصومه السياسيين، حيث يستميله إلى المجئ إلى استانبول ليكون على مقربة منه، ويأمن شره. وكان الشريف حسين من هؤلاء الضيوف الذين خصص لهم السلطان عبد الحميد داراً ساحلية تطل على البوسفور، وعينه عضواً فى مجلس شورى الدولة، وفى عدد من المجالس الفخرية. وبالرغم من ذلك، فقد استطاعت بريطانيا أن توطد علاقتها بالشريف حسين، وابنه عبد الله عن طريق السفير البريطانى فى استانبول. فقد كان الشريف حسين رجلاً ذا أطماع سياسية واسعة، وأنه إذا ظفر بمنصب أمير مكة المكرمة، فإنه لن يقنع بهذا المركز الرفيع بل إنه سيتطلع إلى حكم العرب أجمعين ثم إلى منصب الخلافة الإسلامية. ولماذا لا تكون تلك الورقة الرابحة من أوراق لعبة القضاء على الخلافة ؟.

([1]) أمين الريحانى: سيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن بن آل فيصل، ص٢٦٢.

ونجحت الجهود المكثفة التى بذلت فى استنابول لاستصدار فرمان سلطانى بتعيين الشريف حسين أميرا على مكة. ولما وقع السلطان عبد الحميد الثانى على هذا الفرمان عبر عن مخاوفة من أطماع الحسين قائلا: "لقد خرجت الحجاز من يدنا، واستقل العرب، وتشتت ملك آل عثمان بتعيين الشريف الحسين أميرا على مكة المكرمة، ويا ليته يقنع بإمارة مكة المكرمة وباستقلال العرب فقط، ولكن سيعمل بدهائه إلى أن ينال مقام الخلافة لنفسه".

وقد تحققت مخاوف السلطان عبد الحميد وصحت نبوءاته. فما كاد الشريف حسين يدخل مكة أميرا عليها، إلا وسعى جاهدا على الاستقلال بالسلطة فى الحجاز، مما دعا بالضرورة إلى الخلاف مع الدولة العثمانية. كما مد بصبوه إلى إقليم نجد الذى كان قد عاد إليه آل سعود، وقد كان طبيعيا أن يخاف الشريف حسين من انتصارات عبد العزيز المتلاحقة على أعدائه. فلم يكن العداء بين الأشراف والسعوديين حديث عهد، بل يمكن أن يقال إنه نشأ مع بزوغ الدعوة الوهابية، وتكوين الدولة السعودية الأولى، ولم ينس آل سعود أن الإشراف حكام مكة ساعدوا محمد على باشا فى حملاته ضد نجد، كذلك لم يكن الأشراف يخفون أطماعهم فى فى اقتطاع بعض الأطراف من نجد المتاخمة للحجاز ([1]). لذلك مد الشريف حسين يد المعونة لابن الرشيد، وسرعان ما تصادم الشريف حسين وعبد العزيز على الحدود فى سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م نتيجة تجهيز الشريف حسين أول حملة عسكرية إلى تربة، والتى قادها بنفسه واصطحب معه

([1]) محمد طار العمرى الموصلى: تاريخ مقدرات العراق السياسية، ٣ مجلدات بغداد ١٣٤٣ هـ/ ١٩٢٥م المجلد الأول ص١٧٧، أستاذ دكتور عبد العزيز محمد الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها الجزء الثانى. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٨٠، ص١٠١٦.

ابنيه عبد الله وفيصل، ليقضى على نفوذ عبد العزيز، وانتصر الشريف حسين على الخرمة حيث قبيلة قحطان، وأسر الأمير سعد أخ عبد العزيز قائد الجيش السعودى الذى أرسله على رأس نجدة لمساعدة قحطان قائد الجيش السعودى. ونتيجة لانتصارات خرمة، خضعت قبائل عتيبة والبقوم ومطير لسيطرة الشريف حسين. وقد توسط البعض فى الصلح على أساس الإفراج عن الأمير سعد وإبقاء الحال على ما هو عليه ([1]).

كان عبد العزيز يشعر أن الصدام حتمى بينه وبين الشريف حسين خاصة بعد معركة خرمة، ولذلك انتهز فرصة الحرب العالمية الأولى وأخذ يرسل دعاته للقبائل ليضمن له الأنصار فى صدام المستقبل المرتقب. كما أرسل وفدا إلى الحسين يرجوه تحديد الحدود بين ممتلكاتيهما ويطلب إليه الاعتراف بنجد وحقوقها ومصالحها، إلا أن الشريف حسين أجابه بأن ما هو عليه فهو له، وأدرك عبد العزيز أن ذلك لم يكن إلا اعترافا غامضا لا يكاد يتبين منه شيئا.

وكانت بريطانيا ترى فى الصراع الناشب بين الشريف حسين، وعبد العزيز فرصة لتضمن ولاءهما معا لتحقيق أكبر مكاسب لها من كلا الطرفين. وهكذا لا نستنكر حرص بريطانيا على تغذية أسباب الصراع بين الرجلين لصالح السياسة البريطانية فى جزيرة العرب بعد أن تم القضاء على النفوذ العثمانى فى شبة الجزيرة ([2]).

([1]) أحمد عبد الغفور عطا: صقر الجزيرة، جدة ١٣٨٤ هـ-١٩٦٤م، ص٢٠١-٢٠٣، دكتورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص٩٣.

([2]) دكتور مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص٩٧، ٩٨.

لذلك فقد كانت بريطانيا تؤيد وجهة نظر الشريف حسين فـــى الصـــراع الدائر على الحدود بين نجد والحجاز، وخاصة وأن الحرب العالمية لم تنته بعـــد والحاجة ما زالت ماسة إليه، وفى نفس الوقت كانت بريطانيا تؤيد أحقيـــة عبـــد العزيز فى الخرمة وتربة ([1]).

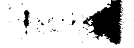
المرحلة الثانية: توحيد الصف العربى ضد الخلافة العثمانية

فى تلك المرحلة سارعت بريطانيا بالتفاوض مع الشريف حســـين علـــى الانحياز إلى صفوف الحلفاء وقيادة ثورة عربية ضد الخلافة العثمانيـــة، وذلـــك مقابل الوعد بضمان استقلال البلاد العربية تحت زعامتـــه، بـــل ولوحـــت لـــه بالخلافة. فكانت الخلافة هى الطعم الذى التقفه الشريف حســـين، وبـــدأت فـــى رمضان ١٣٣٣هـ/يوليو ١٩١٥م المفاوضات الرسمية بيـــن الشـــريف حســـين المتحدث باســـم العرب، وبين بريطانيا عن طريق معتمدها فـــى مصـــر ســـير هنرى مكماهـــون ([2]).

وفى الوقت الذى كانت تتفق فيه بريطانيا مع الشريف حسين لقيادة ثـــورة عربية، كانت تقوم بعقد اتفاقية أخرى مع كل من فرنسا وروسيا عرفـــت باســـم اتفاقية (سايكس – بيكو) وكان من أهم بنودها تقسيم المشرق العربى إلى منـــاطق نفوذ لكل من بريطانيا وفرنسا، وكان يدخل فيها أراضى الدولة العربية المســـتقلة التى كانت بريطانيا قد وعدت بها الشريف حسين عند تفاوضهـــا معـــه، وتـــلاه

([1]) دكتورة مديحة أحمد درويش، ص١٠٠.

([2]) المرجع السابق، ص٩٠.



وعد بلفور فى نوفمبر ١٩١٧، والذى نص على إنشاء وطن قومى لليـــهود فـــى فلســـطين ([1]).

كما أن بريطانيا قبل إبرام ذلك الاتفاق مع الشـــريف حســـين ســـارعت بالتفاوض مع عبد العزيز، فأرسل المعتمد البريطانى فى منطقة الخليج رســـولا إلى عبد العزيز، هو مستر شكسبير .W.H.T الذى مـــهد لاتفاقيـــة بريطانيـــة سعودية وقعت سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٥م، والتى عرفت باسم معـــاهدة داريـــن أو القطيف ([2]). والتى اعترفت بريطانيا بمقتضاها بسلطة عبد العزيز واستقلاله فـــى نجد والإحساء والجبيل والقطيف وما يتبعها من موانئ وسواحل غير محـــدودة، وتوارث أسرته لهذه الأملاك، كما نصت المعاهدة على حماية بريطانيـــا أثنـــاء الحرب، وذلك بأنها فرضت على عبد العزيز ألا يتعامل مع الحكومات والـــدول الأجنبية إلا بعد مشورة بريطانيا، كما حظرت على عبـــد العزيـــز أن يبيـــع أو يرهـــن قطعة أرض من بلاده أو يمنح امتيازا فى أراضيـــه لدولـــة أو شـــركة أجنبية دون استشارة الحكومة البريطانية ورضاها، كما فرضت هـــذه المعـــاهدة على عبد العزيز عدم التعدى على الإمارات العربيـــة الواقعـــة علـــى الخليـــج والخاضعة للحماية البريطانية، حتى تطمئن بريطانيا تماما إلى تأمين ظهرها فـــى الخليج أثناء الحرب ([3]). والأهم من هذا كله أفـــادت المعـــاهدة عبـــد العزيـــز

([1]) حسين فوزى النجار: السياسة والإستراتيجية فى الشرق الأوسط، القاهرة، ١٣٨١ هـــــ-١٩٦١م، ص٤٣٦-٤٣٩.

([2]) أنظر نص المعاهدة:

Hurwitz. J. G. Deplomay in the Ner and Middle East. Vol. II. pp. 17-18

([3]) محمد فؤاد شكرى ومحمد أنيس والسيد رجب حراز: نصوص ووثائق فى التاريخ الحديث والمعاصر، ص٤٨٣-٤٨٤.

بحصوله على معونة مالية من بريطانيا ([1]) لمساعدته فى حربة المصيرية مع آل الرشيد حلفاء الدولة العثمانية لشل حركتهم، ومنعهم من المشاركة الفعلية فى جانب الدولة العثمانية. وأخيرا فقد ضمنت هذه المعاهدة عدم تعرض عبد العزيز – مؤقتا – للشريف حسين ([2]).

وهكذا أصبح عبد العزيز خارجا على الدولة العثمانية دون محاربتهم.

وطبيعى أن يكون موقف عبد العزيز من الحرب العالمية الأولى حياديا، حيث لم يظهر عداء مكشوفا نحو الدولة العثمانية، وإن أظهر ودا مستترا تجاه بريطانيا ([3]). كما كان من الطبيعى أيضا، أن يحرص عبد العزيز بعد توقيعه هذه الاتفاقية أن ينتهج سياسة الود تجاه الأمراء العرب – باستثناء ابن الرشيد – فإن عبد العزيز بمجرد أن عقد الاتفاقية بينه وبين بريطانيا، أرسل رسولا إلى الشريف حسين يخبره بما جرى بينه وبين بريطانيا.

ويبدو أن بريطانيا هى التى أشارت على عبد العزيز بهذه الصراحة مع الشريف حسين لتعجل من انتهاء المفاوضات، والتى كانت تجريها مع الشريف حسين فى تلك الفترة للقيام بالثورة على الخلافة العثمانية. فقد كان الشريف حسين لا يزال فى الطور الأول للمفاوضات مع بريطانيا، فخشى عندما علم بعقد

([1]) سيتون وليمز: بريطانيا والدول العربية، (عرض للعلاقات الإنجليزية العربية، ١٩٢٠ = ١٩٤٨) ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، ص١٨٧.
([2]) دكتور مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص٨٦.
([3]) المرجع السابق، نفس الصفحة.

المعاهدة مع عبد العزيز، أن يتقدمه عبد العزيز فى الزعامة والنفوذ لدى الحلفاء، ومن ثم سارع فى الانتهاء من المفاوضات ([1]).

وأعلن الشريف حسين الثورة فى الخامس من شهر يونيو عـــام ١٩١٦ على الدولة العثمانية، ونادى به أعيان الحجاز فى الثانى من نوفمبر عـام ١٩١٦ ملكا على البلاد العربية، واعترفت به بريطانيا وفرنسا فى الثـالث مـن ينـاير ١٩١٧ ملكا على الحجاز فقط، رغم أن السير آرثر ماكماهون المندوب السـامى البريطانى فى القاهرة، كان قد أرسل إليه فى اليوم الرابـع عشـر مـن شـهر أغسطس عام ١٩١٥ يقول: وإننا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيـا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى بيت عربى حميم من فروع تلـك الدوحـة النبوية المباركـة.

ولم يقف عبد العزيز محايدا من تلك الثورة التى أعلنها الشريف حسـين فقد طلب منه الإنجليز ضرورة التعاون مع الشريف حسين ([2]) فأمر أهـل نجـد خصوصا قصيم وعتيبة وحرب، أن يساعدوا الشريف حسين، وأمرهم كذلـك ألا يتعدى أحد منهم على من أراد أن ينضم إلى جيش الحجاز.

وقد اختلف رد فعل الثورة العربية فى بادئ الأمر من بلد عربـى إلـى آخر، أما فى جزيرة العرب، فقد كانت أنباء الثورة لها أثر عميق، فلـم يتخلـف عنها إلا ابن الرشيد وإمام اليمن اللذان كانا قـد وضعـا أيديـهما فـى أيـدى

([1]) أمين الريحانى: تاريخ نجد الحديث وملحقاته، ص٢٣٤ وما بعدها، دكتور مديحـة أحمـد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص٩٢.

([2]) Troeller. G.: Op. Cit. Pp. 96-99

العثمانيين، أما سائر الحكام فى جزيرة العرب فقد رحبوا بالثورة وعـــبروا عـــن تأييدهم لها فى مهرجان عقدوه فى العشرين من نوفمبر بالكويت، وكـــان فيمـــن حضر ذلك الاجتماع عبد العزيز وأمير الكويت وشيخ المحمرة مع ما يزيد علـــى مائة وخمسين شخصا فيهم عدد من صغار الشيوخ الأقوياء، وقـــد ألقـــى عبـــد العزيز فى المجتمعين خطابا بليغا لخص فيه الموقف فأثـــار حماســـة منقطعـــة النظير، وفى هذا الخطاب حث العرب على أن ينضووا تحت راية الثـــورة، وأن لا يوفروا جهدا فى أن يعضدوا القضية التى تهم كلا مـــن بريطانيـــا والعـــرب، وسرت أخبار الاجتماع وكلمات أبن سعود المثيرة فى جنبات جزيـــرة العـــرب بسرعة عالية ([1]).

وهكذا نجحت بريطانيا فى تلك المرحلة، بفتح جبهات متعددة ضد الدولـــة العثمانية لتفتيت جهدها، وشل حركة قواتها داخل جزيرة العرب، فـــلا تســـتطيع قواتها الموجودة فى اليمن وعسير والحجاز القيام بتحركات من أجـــل مـــؤازرة العمليات العسكرية فى العراق أو الشام، أو ضد قناة السويس، والأهم من ذلـــك القضاء على النفوذ العثمانى فى جزيرة العرب.

لذلك لم يدم تأييد بريطانيا للشريف حسين طويلا، فقد انتـــهت الحـــرب العالمية الأولى، وانهزمت الدولة العثمانية وفقت سيادتها على المنطقة العربيـــة، وأصبح الوجود البريطانى قائما فى معظم أقطـــار المشـــرق العربـــى. وأخـــذ الشريف حسين يعارض قيام الانتداب البريطانى فى البلاد العربية، كمـــا كـــان

([1]) دكتور/ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: تاريخ العـــرب الحديـــث والمعـــاصر. دار الكتاب الجامعى. الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م، ص٢٧٠-٢٧١.

يعارض أى ادعاء لليهود فى فلسطين، وبالتالى كان يرفض وعد بلفور، وفضـــلا عن ذلك ازداد الشريف حسين إصرارا على تنفيذ ما وعدته به بريطانيا من قبل.

ورغم أن بريطانيا كانت لا تعير احتجاجاته عليـــها أى التفـــات ([1])، إلا أنـــه أصبح عبئا على بريطانيا.

المرحلة الثالثة: ضرب محاولة إحياء الخلافة ضربة قاتلة

فى الوقت الذى كان فيه الشريف حسين منشغلا بمطالبة مـــع الإنجلـــيز كان عبد العزيز يعد ضربته الكبرى للقضاء على الهاشميين فـــى الحجـــاز فقـــد أعطى تخلى بريطانيا عن تأييدها التقليدى للشريف حســـين، الضـــوء الأخضـــر للملك عبد العزيز للانقضاض على الحجاز، وخاصة بعد اطمئنان بريطانيا علـــى أن عبد العزيز لا يطمع فى الخلافة إذا ما وضع يده على الحجاز، فقد ســـبق أن استطلعت بريطانيا رأى عبد العزيز، حيث تكلم معه السير برسى كوكسى عـــن انتقال الخلافة إلى العرب، وعرض المنصب علـــى عبـــد العزيـــز قـــائلا: إن حكومـــة جلالة الملك تستحسن ذلك وتساعد فى تحقيقه. ولكن عبد العزيز لـــم يخف عليه قصد المعتمد البريطانى، فقال: "لا طمع لى بالخلافـــة وإنـــى لا أرى من هو أجـــدر بها من الشريف حسين ([2]).

ورغما عن هذا فقد احتاطت بريطانيا لنفسها من أى مفاجآت مـــن عبـــد العزيز، حيث حرصت على امتداد سلطان الهاشميين إلى شرق الأردن من قبـــل،

([1]) حسين فوزى النجار: السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط، ص٤٣٦-٤٣٩.

([2]) أمين الريحانى: تاريخ نجد: ص٢٣.

بدليل أنه على الرغم من أن بريطانيا أعلنت حيادها فـــى الـــنزاع الدائــر بيـــن الهاشميين والسعوديين، إلا أنها بمجرد أن وجه السلطان عبـــد العزيـــز جـــزءا صغيرا من قواته إلى حدود شرق الأردن فى مطلع سنة ١٣٤٣هـــ/أغســطس ١٩٢٤م، تدخلت فى الحال القوات البريطانيـــة بـــالطيران، وردت الســعوديين وأبعدتهم عن الحدود الأردنية ([1]). كما أن بريطانيا تعلم جيدا مدى ارتبـــاط آل سعود بالدعوة الوهابية، وتعلم أيضا عدم تجاوب العالم الإسلامى مع تلك الدعوة.

حقيقة أن المجابهة العسكرية بين القوات السعودية والجيش الهاشمى لـــم تحدث إلا ســـنة ١٣٤٣هــ/١٩٢٤م، ولكـــن المرحلـــة نفســها تبـــدأ ســـنة ١٣٣٩هـــ/١٩٢١م بعد أن مرت سنتان فى هدوء نســـبى بيـــن عبـــد العزيـــز والشريف حسين، وهما سنتى ١٣٣٧هـــ/ ١٩١٩ن، و ١٣٣٨هـــ/ ١٩٢٠م، ويبدو أن ذلك كان برغبة بريطانيا لأمر لا نعلمه، حيث تدخلت بريطانيا فى تلـك الفترة بعدة وساطات للتوفيق بين الطرفين ([2]).

ولما رأت بريطانيا أن الظروف تسمح أن تبدأ المرحلـــة الأخـــيرة فـــى خطتها للقضاء على الخلافة الإسلامية، عملت على تأييد عبد العزيز فى العـدوان على الحدود الحجازية سنة ١٣٣٩هـــ/ ١٩٢١م، بزعم أن خرمة تعتنق الدعـــوة السلفية، وأن معظم أهلها من قبيلة سبيع وهى من القبائل النجدية ([3]).

([1]) Taynbe. A. Survey of International Affairs. 1925. Pp. 297-330

([2]) دكتورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص١٠٥.

([3]) Troeller. G.: Op. Cit, p. 132

وقد كان طبيعيا أن يرد الشريف حسين على هذا العدوان بأن يحرم أداء فريضة الحج فى تلك السنة، وقد كان ذلك بتأييد من بريطانيا أيضا، فقد كانت بريطانيا تكيل بمكيالين، فترى أن للشريف حسين هو الأحق بخرمة، لأنها لا تبعد عن الطائف إلا ٨٠ ميلا فقط، كما أن حاكم خرمة خالد بن لؤى كان من الأشراف ومعينا من قبل الشريف حسين، وكانت مساءلة هذا الحاكم تتم أمام الشريف دون أى اعتراض من جانب عبد العزيز ([1]) لكن الشريف حسين عاد فأذن لهم بالحج فى العام التالى تحت ضغط الإنجليز. ولكنه عاد فحرمهم مرة أخرى بحجة انهم مشاغبون ويعملون على إثارة القلاقل فى الحجاز، واشترط للإذن لهم بالحج شروطا قاسية، منها أن يخلى السلطان عبد العزيز الجوف وتربة وخيبر، وكل الجهات التى يعتبرها الشريف حسين تابعة للحجاز. وكان من الطبيعى أن يرفض السلطان عبد العزيز هذه الشروط، وبالتالى أن يتمسك الشريف حسين بمنع النجديين من الحج.

وعلى أساس ما تقدم شرع الإنجليز يعدون لمؤتمر الكويت لحل مشاكل الحدود بين نجد والعراق والأردن ولحسم النزاع بين سلطان نجد والشريف حسين ([2]). ففى سنة ١٣٣٩هـ/١٩٢١م قامت المملكة العراقية تحت حكم فيصل ابن الشريف حسين، وإمارة شرق الأردن تحت حكم ابنه الآخر عبد الله، فقد كانت بريطانيا ترى ضرورة ذلك فى هذا الوقت حتى تؤلف هذه الأقطار مع الحجاز اتحادا عربيا، يرأسه الوالد الشريف حسين فى الحجاز([3]). ويبدو أن الإنجليز فى هذا الوقت كانوا يريدون تكوين جبهة قوية أمام أى محاولة لإحياء

([1]) Ibid, p. 133.

([2]) دكتور محمد عبد الله ماضى: النهضات الحديثة فى جزيرة العرب، القاهرة، ١٩٥٢م، ١٥٠.

([3]) دكتورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص١١٧.

الخلافة الإسلامية فى أى مكان. أما الهاشميون فكانت بريطانيا لا تخشاهم، فقد كان رأى بريطانيا فيهم أنهم كانوا لا يتحلون بأى ميزة، ولا يتمتعون بحب شعب الجزيرة، ولذلك فإنهم سينهارون بسرعة إذا ما أوقفت بريطانيا مساندتها لهم، وفى نفس الوقت كانت تريد بريطانيا تكوين جبهة معادية للسلطان عبد العزيز، يمكن أن تستغلها بريطانيا إذا ما تعدى السلطات عبد العزيز الحدود التى رسمتها بريطانيا له.

لذلك عقدت مؤتمر المحمرة (تقع المحمرة على شط العرب) ووضعت معاهدة المحمرة فى مايو ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م (ثم عدلت ببروتوكول العقير فى ديسمبر من نفس السنة) وفيها عينت الحدود بين نجد والعراق. غير أن العراق لم يحترم بنود تلك المعاهدة، مما أرجع الخلاف مرة أخرى بين السلطان عبد العزيز والعراق والحجاز وشرق الأردن، الأمر الذى حتم عقد مؤتمر الكويت فى سنة ١٣٤١هـ/١٩٢٣م، لتسوية الخلاف نهائيا بين السلطان عبد العزيز والأشراف [١] غير أن هذا المؤتمر فشل بسبب عدم حضور وفد الحجاز، وإصرار وفد الأردن على أن يتخلى السلطان عبد العزيز عن الجوف ووادى السرحان إلى شرق الأردن، وأن يتنازل عن شيماء، وخيبر، وتربة، وخرمة إلى الحجاز، ويعيد حائل إلى آل الرشيد، وهى مطالب لم يكن من المعقول أن يقبلها السلطان عبد العزيز، مما تسبب فى فشل المؤتمر. وبفشل مؤتمر الكويت، تجددت إغارات الإخوان النجديين على حدود العراق، بينما تقدمت بعض فصائل من الجيش الحجازى نحو خرمة وتربة لمحاولة احتلالهما، إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل [٢].

---

(١) حافظ وهبة: جزيرة العرب، ص٢٦١-٢٦٥.

(٢) دكتورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص١٠٧.

وفى تلك الأثناء وفى الوقت الذى كان يجب علـــى الشــريف حســـين التقرب من العالم الإسلامى، يسئ معاملة الحجاج، ويشتط معـــهم فـــى فــرض الضرائب، مع عدم العناية اللازمة براحتهم وأمنهم. كذلك اختلف معهم فى شأن البعثات الطبية وغيرها، فكان ذلك سببا فى عودة المحمل المصـــرى فـــى ســنة ١٣٤١هـ/١٩٢٣م وذلك نتيجة لرفض الشريف حسين قبـــول البعثـــة الطبيـــة المصرية بصفة رسمية مستقلة عن بعثة الحجاج المصرية (١).

وزاد من سوء العلاقات بين مصر والحجاز تعمد الشريف حســـين فـــى حج سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م إلى نزع اسم الملك فؤاد من فوق كســـوة الكعبـــة المشرفة مما عد إهانة لمصر ومليكها (٢). أضف إلى ذلك اشتداد الخلاف بيـــن الشريف حسين وبين الحجاج الهنود، ثم بينه وبين الإنجليز من أجلهم (٣).

وهكذا، فقد الشريف حسين كثيرا من سمعته وتعـــاطف أبنـــاء الحجـــاز معـــه(٤).

وكانت السياسة الاقتصادية، والإدارية، والمالية، التى اتبعها فى الحجـــاز قد أضرت بدولته ضررا بليغا، وجعلت عدد الحجاج يقل، بحيث أصبـــح مـــورد موسم الحج لا يكفى لإعالة سكان مكة الذين كانوا لا يعيشـــون إلا منـــه. كمـــا تعمدت بريطانيا، أن تقطع مساعداتها المادية عن الشريف حسين، حتـــى عجـــز

---

(١) عبد العزيز صبرى: تذكار الحجاز، القاهرة، ١٣٤٢هـ-١٩٢٤م، ص١٠٠ وما بعدها.

(٢) أرشيف رئاسة مجلس الـــوزراء المصـــرى، تقريـــر أعمـــال إمـــارة الحـــج الشـــريف ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.

(٣) دكتورة مديحة أحمد درويش، تاريخ الدولة السعودية، ص١٠٧.

(٤) Confid. Appreciation of the situation in hijaz. January 1920

عن دفع الأموال للقبائل الحجازية ([1]) التى كان من الممكن أن تقوم بدور إيجـابى فى حالة تعرض الحجاز لأى هجوم نجدى ([2]).

فى نفس الوقت حرص السلطان عبد العزيز على تحسين العلاقات بينـــه وبين العالم الإسلامى، بتودده إلى المسلمين، وشرح مراحل الخلاف بينه وبيـــن الشريف حسين متظلما من منع الشريف حسين للنجديين من أداء فريضة الحـــج ([3]) كما سعى السلطان عبد العزيز لإنشاء علاقات ودية مـــع مصـــر حتـــى لا تتعرض دولته الجديدة لما تعرضت له الدولة السعودية الأولـــى عنـــد غزوهـــا للحجاز. لذلك أرسل السلطان عبد العزيز فى سنة ١٣٤٢هـــــ/١٩٢٤م برقيـــة تهنئة إلى الملك فؤاد بمناسبة افتتاح أول برلمان مصرى ([4]).

كذلك أوضح فيصل بن عبد العزيز فى بيان نشره عن موقف نجـــد إزاء الخلافة ومشاركة السلطان عبد العزيز الرأى لعلماء مصر فـــى موقفـــهم مـــن ضرورة حل مسألة الخلافة فى مؤتمر يعقد بالقاهرة ([5]). كما عمد إلـــى تـــأكيد عدم طمع السلطان عبد العزيز فى الخلافة. مما يزيل الشك فى نفس الملك فـؤاد الذى كان يتمناها ([6]).

([1]) بالنسبة للمساعدات المالية البريطانية وما مرت به من مراحل، أرجع إلى:
Troeller, G.: Op. Cit., pp. 159-167.

([2]) دكتورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص١٠٨، ١٠٩.

([3]) حافظ وهبة: خمسون عاما فى جزيرة العرب، ص١٣١.

([4]) دكتورة مديحة درويش: المرجع السابق، ص١٠٨.

([5]) المنار: مجلد ٢٥، ج٦، ص٤٥٦.

([6]) دكتورة مديحة أحمد درويش: المرجع السابق، ص١٠٨.

وفى الثالث من شهر مارس سنة ١٩٢٤، أعلنت تركيا إلغـــاء الخلافـــة، فقد استسلمت تركيا فى نهاية الحرب العالمية وتدفقـــت قـــوات الحلفـــاء علـــى أراضيها، واستولت بريطانيا على العاصمة العثمانية الاستانة. وكان مـــن أهـــم أحداث تلك الفترة إلغاء السلطنة فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٢٢ مـــع الإبقـــاء علـــى الخلافة، وبعد خمسة أشهر، وبعد الاطمئنان على ردود الفعل الإســـلامية أعلـــن إلغاء الخلافة. وقد اتفق إعلان إلغاء الخلافة أثناء وجود الشـــريف حســـين فـــى عمان بالأردن، فاغتنم هذه الفرصة واتفق مع أبنه عبد الله أمير شـــرقى الأردن على اتخاذ الترتيبات لإجراء البيعة له بالخلافة. وتم له ما أراد، وجرت البيعـــة فى الثانى عشر من نفس الشهر مارس عـــام ١٩٢٤ فـــى عمـــان، وذلـــك دون الرجوع إلى ملوك ورؤساء وقادة العالم الإسلامى، مما أسخط عليه الجميع، وقـــد غادر الشريف حسين عمان فى اليوم العشرين من نفس الشهر مارس عائدا إلـــى مكة وهو يحمل لقبا جديدا، هو الخليفة، فى وقت كان عرشه يهتز اهتزازا عنيفـــا [1] فقد عقد السلطان عبد العزيز مؤتمرا فـــى الريـــاض فـــى عيـــد الأضحـــى ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م، حضرته معظم زعامات الإخوان وزعماء نجـــد [2] حيـــث أعرب النجديون فى المؤتمر عن رغبتهم فى الحج لهذه السنة، حتى لو أدى ذلـــك إلى استيلائهم على الحجاز بالقوة، غير أن السلطان عبد العزيز فضـــل الـــتريث وتأجيل الغزو حتى يرجع الحجاج إلى بلادهم، وذلك خوفا من تعرضهم لمخـــاطر

---

[1] أستاذ دكتور عبد العزيز محمد الشناوى: الدولة العثمانية، ص١٠١٧.

[2] انظر نص الخلاصة التى أرسلها السلطان عبد العزيز إلـــى جميـــع الصحـــف العربيـــة والهنديـــة، والتى حوت ما دار فى المؤتمر من أحاديث. منشورا فى مجلة المنار، مجلـــد ٢٥، ج٦، ص٤٥٧-٤٦٠.

الحرب بينه وبين الشريف حسين، مما قد يؤدى بالضرورة إلى استياء الرأى العام الإسلامى ([1]).

وفى تلك الأثناء كان العالم الإسلامي تتشكل فيه لجان للنظر فى أمر الخلافة، وكان أكثر الأصوات ارتفاعا فى هذا المجال لجنة، الخلافة بالهند، التى أعدت عندما وصلتها أنباء مؤتمر الرياض تأييدها المطلق لسلطان نجد، وأرسلت إليه تشجعه على ما انتواه فى حربة للشريف حسين، وإخراجه من الحجاز ([2]).

وكانت الهند متأثرة بموقف الشريف حسين من الحجاج الهنود، والمعاملة السيئة التى يلقونها فى الحجاز. كذلك لإنضمامه إلى الحلفاء ضد الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية، والتى كانت تأمل فى مساعدتها للتخلص من الاستعمار البريطانى ([3]).

وكان السلطان عبد العزيز قد استعد وقتئذ لهدفه الرئيسى، فقد تحرك من تربة إلى الطائف حيث استولى عليها بسهولة فى ٦ صفر ١٣٤٣هـ/ ٦ سبتمبر ١٩٢٤م ([4]).

ويبدو أن الخطة التى وضعت لغزو الحجاز، كانت تهدف إلى الاستيلاء على مكة دون إراقة دماء، مراعاة لمشاعر المسلمين. لذلك صحب غزو الطائف

([1]) المنار: مجلد ٢٥، ج٦، ص٦١٥ وما بعدها

([2]) المرجع السابق، ص٤٥٧-٤٦٠، صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة، ج٢، ص٢٨٩-٢٩١، دكتورة مديحة احمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص١٠٩، ١١٠.

([3]) المرجع السابق، ص١١٠.

([4]) Toynbee. A.: Survey of International Affairs. 1952. P. 297.

كثير من حوادث السلب، والنهب، والقتل، التى أثارت الرعب فى قلوب أهل مكة. كما تعمد الجيش السعودى الإبطاء قبل دخول مكة حتى تتمكن السلطة السياسية من قياس رد الفعل لدى الشريف حسين، وكذا رد فعل الدول الأجنبية ذات المصالح بالحجاز، ثم قياس مدى تأثر المسلمين بعملية التهديد بفتح الحجاز، والقضاء على سيطرة الأشراف على الأماكن المقدسة، وكذا التأكد من عدم تدخل أبناء الشريف حسين من شرق الأردن أو العراق (١). أما بريطانيا فقد اتخذت قرارها بالوقوف على الحياد، والبعد عن الصراع، بحجة عدم التدخل فى المسائل الدينية، وأنه ليس فى وسعها أن تشتبك فى أى قتال ينشب بين حكام مستقلين فى شبيه الجزيرة العربية فى سبيل الاستيلاء على الأماكن المقدسة (٢)، بل أكثر من ذلك رفضت بريطانيا أى وساطة لإثناء السلطان عبد العزيز عن تحقيق هدفه، بحجة أن السلطان عبد العزيز يرفض الوساطة (٣).

بعد ذلك، تقدمت القوات السعودية إلى الهدى، حيث تحقق لها النصر فى ٢٦ صفر ١٣٤٣هـ/٢٦سبتمبر ١٩٢٤م وانسحبت القوات الحجازية إلى بازان فى أعالى مكة. وبانسحابها هذا أصبح الطريق مفتوحا أمام القوات السعودية إلى مكة (٤).

ولم يجد الشريف حسين مفرا سوى الانسحاب إلى جدة والتحصن بها. ثم رأى أعيان أهل الحجاز ضرورة تنازل الشريف حسين عن العرش لأبنه

---

(١) العقيد أ.ح. محمد إبراهيم رحمو: أضواء حول الاستراتيجية العسكرية ص٢٥.

(٢) Part. Debates. Hiuse of Commons. London. Vol. 170. Oct. 1924. Columm 141-142

(٣) The hostilities in the hijaz. Op. Cit. p. 647.

(٤) أمين الريحانى: تاريخ نجد ص ٣١-٣٣٥.

الأمير علي، ظنا منهم أن هذا سيضع نهاية للحرب ([١]). وبالفعل اجبر الشريف حسين على التنازل عن العرش ومغادرة جدة إلى العقبة فى ٢٤ أكتوبر من نفس السنة ([٢]). ثم بعد ذلك اضطر الشريف حسين إلى مغادرة العقبة بناء على أوامر الحكومة البريطانية بحجة خوفها أن يتعرض ميناء العقبة لهجوم سعودى ([٣]). وحقيقة الأمر أن وجود الشريف حسين فى العقبة كان يمثل المصدر الوحيد الذى يمد الحكومة فى الحجاز بالمال بعد أن نفدت خزينتها، فقد أرسل الشريف حسين من العقبة إلى الحكومة فى الحجاز خلال سنة ١٣٣هـ/١٩٢٤م مبالغ كبيرة. فى شهر رجب صندوقين فيهما خمسة عشر ألف ذهبا، ثم أرسل فى شهر رمضان بخمسة آلاف أخرى، ثم فى شوال أبحرت الباخرة (رضوى) من العقبة وهى تحمل عشرين ألفا من الذهب للإنفاق على الجيش الحجازى، وبعد أن نقل الشريف حسين من العقبة لم يرسل غير دفعة واحدة صغيرة قيمتها خمسة آلاف ليرة. فأخذ العسر المالى منذ ذلك الحين يشتد بالحجاز، حتى اضطر الملك علي بعد أن تمت مبايعته ملكا على الحجاز، أن يرهن أملاكه الخاصة فى مصر، لقاء قرض قيمته خمسة عشر ألف جنيه ([٤]).

ومن الجدير بالذكر أن الأمير على أطلق عليه (ملك الحجاز) فقط لا ملك العرب كما كان والده يحاول ذلك ([٥]).

([١]) أحمد عبد الغفور عطار: صقر الجزيرة ص٢٩٣ وما بعدها.

([٢]) Hostilities in the Hejez. The near East and India xxvill. 339 Nov. 1952. P. 647.

([٣]) دكتورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص١١٢.

([٤]) أمين الريحانى: تاريخ نجد الحديث. دار الجيل. بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨٨، ص٤٠٠-٤٠١.

([٥]) دكتورة مديحة أحمد درويش: المرجع السابق، ص١١٢.

وقد عمد الملك على بعد انتقاله إلى جـــده وتحصنـــه بـــها أن يواصـــل الاستعدادات للحرب. لذلك طلب مساعدة بريطانيا فأرسل برقية إليها يقول فيـها: أرسلوا الطائرات والمال وخصوصا السلاح ([1]). لكن بريطانيا رفضـــت هـــذا الطلب كما رفضت التدخل تماما وأجابت الملك على بأن النزاع بين آل الحســين وآل سعود يدور حول قضية مذهبية دينية، وأنهم عملا بالتقـــاليد البريطانيـــة لا يسعهم التدخل فى نزاع من هذا النوع ([2]).

فى هذه الأثناء أرسلت بريطانيا بعثة دبلوماســية ([3]) برئاســة الجــنرال جليبرت كلايتون Gillbert Clayton الرئيس السابق للكلونيل لورانـــس فـــى المكتب العربى لمقابلة السلطان عبد العزيز، والتفاهم معه حول الحدود النجديـــة العراقية، والحدود النجدية مع شرق الأردن. وتقابل السلطان عبد العزيـــز مـــع البعثة البريطانية، وظن عبد العزيز فى بـــادئ الأمـــر أن البعثـــة قـــد جـــاءت لمفاوضته فى أمر الحجاز والجلاء عنها، ولكن اتضح له أنـــها موفـــدة لتحقيـــق جلاء القوات السعودية عن وادى السرحان الداخل فى حـــدود الأردن، وأكـــدت البعثة عدم رغبتها فى إثارة موضوع الحجـــاز إطلاقـــا ([4]). ومـــن ثـــم ازداد اطمئنان السلطان عبد العزيز، وقد كان ذلك بمثابة الضوء الاخضر من الإنجلـيز فتابع عبد العزيز زحفه على الحجاز ([5]).

([1]) بنوميشان: سيرة عبد العزيز آل سعود. ترجمة عبد الفتاح يـــس، بـيروت، ١٣٨هـــ-١٩٦٣م، ص١٧٣.

([2]) حسين فوزى النجار: السياسية والاستراتيجية، ص٤٤٠.

([3]) The hostilities in the hejaz. Op. Cit. P. 647. Treller. G: OP. Cit.: pp. 227-231.

([4]) أم القرى: ٢٨ ربيع أول ١٣٤٣هـ/ ١٦ أكتوبر ١٩٢٥م.

([5]) بنوا ميشان: سيرة عبد العزيز ص١٨٥، دكتورة مديحة أحم درويـــش: تـاريخ الدولـة السعودية ص١٢٠.

وكان السلطان عبد العزيز قد تباطأ فى الزحف علـــى مكــة، بعــد أن استولى على الطائف، حتى يرى ردود الفعل المنتظرة من العـــالم الإســــلامى، ولما وضح له الموقف المحايد الذى اتخذته بريطانيا، ورغبتها فى عدم التدخـــل فى النزاع القائم بينه وبين أشراف مكة، باعتباره نزاعا دينيا. واصـــل زحفــه حتى يحقق هدفــه فى تخليص الحجاز من حكم الأشراف. وقد حرص الســلطان عبد العزيز أن تكون قواته التى ستدخل مكة المكرمة تحت قيـــادة رجــل مــن الأشراف. من نفس قبيلة الشريف حسين، وهو خالد بن لؤى، حيث دخل الجيش السعودى مكة بدون قتال فى ١٧ ربيع الأول ١٣٤٣هـ/١٦ أكتوبر ١٩٢٤ (١).

وبعد دخول مكة وحصار جدة، سقطت فى يد الجيوش السعودية، موانـئ الليث، ورابغ والقنفذة، وكان موسم حج ١٣٤٤ على الأبواب، لذا رأى الســلطان عبد العزيز ضرورة توجيه نداء إلـــى كافــة المســلمين فــى مشــارق الأرض ومغاربها يعلن فيه تشجيعه وترحيبه بحجاج بيت الله الحرام لهذا الموسم بعــد أن ساد النظام فى مكة المكرمة واستتب الأمن فيها، وأنه يتكفــل بتــأمين راحتــهم والمحافظة على أرواحهم وحقوقهم، وتسهيل سفرهم من تلك الموانئ الثلاثة إلـــى مكة. ولقد نجح موسم الحج نجاحا كبيرا. وعاد الحجاج إلى ديـــارهم ســالمين وشاكرين للسلطان عبد العزيز حسن أمارته، كما كانوا خير دعاية لحكمه.

وفى تلك الأثناء كان الموقف قد اتضح لكافة القناصل فى جدة، من حيث أن الصورة قاتمة بالنسبة للملك على. وأن مــن مصلحتــه الاستســلام للقــوات السعودية. ذلك أن الملك على لم يكن يشعر بأى أمل فى إمكانية التصدى للقــوات

(١) عبد الحميد الخطيب: الإمام العال ج١، ص٦٩، محمد عبد الله ماضى: النهضات الحديثة، ص١٦٠.

الزاحفة، ولم تلبث القوات السعودية أن سيطرت حربيا على كل الحجاز عدا جدة، وأصبح بذلك السلطان عبد العزيز سيد الموقف كله. فقد صار الحرمان الشريفان (المكى والنبوى) فى حوزته، وغدت الطائف والكثير من الموانئ فى قبضته، وفضلا عن توافر الذخائر لديه وكثرة جنوده [١].

ولما يئس الملك على من معاونة الإنجليز حتى أخوه فيصل فى العراق، وأخوه عبد الله فى شرق الأردن، لم يهبوا لمؤازرته [٢]. وبناء على نصائح كبار موظفيه، قرر وضع حد لهذه الحرب. فوسط المعتمد البريطانى فى الموقف، وأعلن أنه سئم الحرب، وأنه يرغب فى حقن الدماء. وأبرق المعتمد البريطانى لحكومته يستأذنها فى الوساطة فأذنت له، وانتهى الأمر بأن أرسل نائب المعتمد وقنصل بريطانيا بجدة مستر غوردون خطابا إلى السلطان عبد العزيز يطلب منه مقابلته فى الرغمة، فوافق عبد العزيز على ذلك.

وقد تم الإتفاق على خروج الملك على فى سلام من جدة، مقابل تنازله عن عرش الحجاز، وتسليم أسرى الحرب السعوديين، وكذلك تسليم جميع الأسلحة والمهام الحربية والبواخر للسلطان عبد العزيز لتكون كلها ملكا له. وفى مقابل ذلك، تعهد السلطان عبد العزيز بالعفو العام عن الموظفين المدنيين والعسكريين والأشراف وكل الأهالى، وضمان سلامتهم الشخصية وسلامة أموالهم، وتسهيل رحيل من يرغب منهم، كما تعهد أيضا بأن يمنح آل الشريف حسين جميع ممتلكاتهم الشخصية [٣] وبذلك انتهت فصول الحرب السعودية

---

(١) دكتورة: مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص١٢٤.

(٢) بنوا ميشان: سيرة عبد العزيز، ص١٨٥.

(٣) أحمد عبد الغفور عطار: صقر الجزيرة، ص٤٠١.

الهاشمية بعد صراع استمر فترة طويلة. وبعد أن غادر الملك على جدة بحـــرا قاصدا البصرة ومنها إلى بغداد ([1]). دخل السلطان عبد العزيز جدة فى صبـــاح ٨ جمادى الثانية ١٣٤٤/٢٤ ديسمبر ١٩٢٥م وبانتهاء تسليم جدة سلمت ينبع ([2]) فى ٩ جمادى الثانية ١٣٤٤هـ/٢٢ ديسمبر ١٩٢٥. وبهذا انتهى حكم الأشـواف فى الحجاز.

ولقد كان لاستيلاء السلطان عبد العزيز على الأراضـــى المقدسـة ردود فعل عنيفة ومتباينة، وهذا ما توقعه عبد العزيز قبل ذهابـه إلـى مكـة للحـاق بجيشه، لذلك سارع فى محاولة لتهدئة النفوس عن طريق بلاغ أذاعه على أهـل الرياض وعلمائها قال فيه: "إنى مسافر إلى مكة لا للتسلط عليــها، بـل لرفـع المظالم والمغارم التى أرهقت كاهل عباد الله، إنى مسافر إلـى مـهبط الوحـى لنبسط أحكام الشريعة، ونؤيد أحكامها، فبعد الآن لا يكون سلطان فـى مكـة إلا للشرع، وجميع الرؤوس يجب أن تطأطئ للشريعة. إن مكة للمسلمين كافة، فأمر إدارتها وتنظيمها يجب أن يكون طبق رغائب العالم الإسلامى. "إننـا سـنجتمع بوفود العالم الإسلامى هناك وسنتبادل معهم الرأى فى كل الوسائل التـى تجعـل بيت الله بعيدا عن الشهوات السياسية، وتحفظ راحة قاصدى حرم الله" ([3]).

وفى نفس الوقت وجه السلطان عبد العزيز نداء إلـى ملـوك وأمـراء وحكام العالم الإسلامى ورؤساء الجمعيات الإسلامية لإرسال مندوبيهم إلى مكـة لعقد مؤتمر إسلامى ينظر فى مستقبل الحجاز، وقد قال فى هذا النـداء: "أنقذنـا

([1]) Malona, J.H., The Arab Lands of Western Asia. P. 154

([2]) دكتورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية: ص

([3]) حافظ وهبة: جزيرة العرب فى القرن العشرين، ص٢٦٩.

بيت الله، سنسافر قريبا إلى مكة. نرجو أن ترسلوا مندوبين من قبلكم ليساعدونا مع باقى الشعوب فى وضع إدارة منظمة تضمن راحة الحجيج وقاصدى بيت الله الحرام وتجعل الأماكن المقدسة حرة لكل من يقصدها من الأمة الإسلامية([1]).

ولكن ثلاثون من أعيان مكة، وعشرون من أعيان جدة اجتمعوا وتشاوروا فى الأمر واتفقوا على ألا يعلق مصيرهم بأيدى العالم الإسلامى، واتفقوا على ضرورة اختيار ملك لهم، ثم قرروا بإجماع الآراء مبايعة السلطان عبد العزيز ملكا على الحجاز ([2]). وقبل السلطان عبد العزيز البيعة وأصدر فى جمادى الأولى ١٣٤٤هـ/٧ يناير ١٩٢٦ منشورا أعلن فيه اضطراره لترك تقرير مصير الحجاز لأهله بناء على إصرارهم على حق تقرير مصيرهم جاء فى ختامه: "ولقد كانت عزيمتى منذ باشرت العمل فى هذه الديار أن أنزل على حكم العالم الإسلامى – وأهل الحجاز ركن فيه – فى مستقبل هذه الديار المقدسة – ولقد أذعت الدعوة عامة غير مرة أدعوهم لعقد مؤتمر إسلامى يقرر فى مصير الحجاز فيه المصلحة، ثم عززت ذلك بدعوة عامة وخاصة فأرسلت كتابا للحكومات وللشعوب الإسلامية فى ١٠ ربيع الثانى ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م وقد نشر ذلك الكتاب فى سائر صحف العالم. ومضى عليه ما يزيد على الشهرين، ولم أتلق على دعوتى جوابا من أحد، ما عدا جمعية الخلافة فى الهند، فإنها بارك الله فيها عملت وتعمل كل ما فى وسعها لراحة الحجاز وهنائه.

([1]) رئاسة الجمهورية: قصر القبة: ملف رقم ١٤٨٠، ج١، أم القرى ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٢هـ/ ديسمبر ١٩٢٤، حسين بن محمد نصيف: ماضى الحجاز وحاضرة، القاهرة، ١٣٤٩هـ، ص١٧٢-١٧٣.

([2]) عبد الحميد الخطيب: الإمام العادل، ج١، ص١٢٦ وما بعدها.

ولما انتهى الأمر فى الحجاز إلى هذه النتيجة جاءنـــا أهـــل الحجـــاز جماعـــات وفرادى يطلبون منى أن أمنحهم حريتهم التى وعدتهم بها فى تقرير مصـــــيرهم، ولم يسعنى أمام طلباتهم المتكررة إلا أن أمنحهم هذه الحرية ليقرروا فـــى شـــأن بلادهم ما يشتهون بعدما ظهر من العالم الإسلامى هذا الصد والإعـــراض عـــن مثل هذه القضية الهامة ([1]).

ولقد سارعت كل من بريطانيا، وفرنسا، والاتحاد السوفيتى بـــالاعتراف بالملك عبد العزيز ملكا على الحجاز، ثم توالـــت اعترافـــات الـــدول الأخـــرى بالوضع الجديد فى الحجاز. وبذلك أصبح لقب عبـــد العزيـــز ملـــك الحجـــاز وسلطان نجد وملحقاتها، وفى نهاية عام ١٩٢٦ نودى بعبد العزيز ملكا على نجد وملحقاتها فأصبح لقبه بذلك ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ([2]).

ولما وجد الملك عبد العزيز أن العالم الإسلامى أرسل مجموعـــــة مـــن البرقيات والكتابات يطلب عقد المؤتمر رغم البيعة التى تمت له، فقد شعر الملـــك عبد العزيز بأنه من الضرورى السير فى موضوع الدعـــوة لمؤتمـــر إســـلامى، وذلك لكى يتجنب ردود الفعل من جانب الدول الإسلامية، فأخذ يعد العدة لذلـــك المؤتمر([3])، لكن الدعوات هذه المرة كانت من أجل عقد مؤتمر إسلامى لبحـــث الوسائل الكفيلة لراحة الحجيج فقط دون بحث مصير الحجاز. ولا شك أن الملـــك عبد العزيز استهدف من المؤتمر بصورته الجديدة رضـــاء العـــالم الإســـلامى، والاعتراف الجماعى بمبايعته على الحجاز من جـــانب الحكومـــات والشـــعوب

([1]) أم القرى: ٢٣ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ/ ٨ يناير ١٩٢٦.
([2]) المقطم: ١٠ مارس ١٩٢٦.
([3]) دكتورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص١٣٩.

الإسلامية، والتى كان مجرد تلبيتها الدعوة وقبولها إرسال مندوبين عنها بمثابة الاعتراف من جانبها بالملك عبد العزيز ومكانته الجديدة بالنسبة للحجاز ([1]).

ومن الجدير بالذكر أن الوفود الإسلامية لم تلب الدعوة وتصل إلى مكة دفعة واحدة، وإنما تباعا، وقد اضطر الملك عبد العزيز نتيجة لهذا الموقف إلى تأجيل انعقاد المؤتمر عن الموعد السابق تحديده، وهو ٢٠ ذى القعدة ١٣٤٤هـ/٣٠ مايو ١٩٢٦م إلى ٢٦ ذى القعدة ١٣٤٤هـ/٧ يونيو ١٩٢٦م.

أما بالنسبة لمصر، فقد تأخر وصول وفدها عن موعد انعقاد المؤتمر ذلك لإهمال وتجاهل الحكومة المصرية الدعوة لحضور المؤتمر فى بادئ الأمر. وكان هذا الموقف للحكومة المصرية ومليكها نتيجة لعدة أسباب أهمها:

أولا: كان موعد انعقاد المؤتمر الإسلامى بمكة فى وقت مقارب لموعد المؤتمر الإسلامى للخلافة والمقرر عقده بالقاهرة لاختيار خليفة للمسلمين بعد أن ألغيت الخلافة الإسلامية فى تركيا فخشيت الحكومة المصرية – وعلى رأسها الملك فؤاد الذى كان يطمع فى الخلافة – أن يؤدى المؤتمر الإسلامى بمكة إلى إلغاء مؤتمر الخلافة.

ثانيا: أثار فشل مؤتمر الخلافة الذى تم انعقاده قبل مؤتمر مكة بفترة قصيرة مخاوف السلطات المصرية فى إمكانية نجاح مؤتمر مكة فيما فشل فيه مؤتمر القاهرة بشأن موضوع الخلافة، وذلك رغم تأكيدات الملك عبد

([1])دكتورة مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية، ص١٤١-١٤٣.

العزيز المسبقة لمصر بأن أعمال مؤتمر مكة فى بحث أمور الحـــج فقــط ولا مجال لبحث أى أمر آخر مثل أمر الخلافة.

ثالثا: جاءت الدعوة لمؤتمر مكة فى وقت ترأس فيه الحكومة المصريـــة زيـــور باشا. وكانت هذه الوزارة تعمل وتسعى لإرضاء الملك فؤاد، الذى كـــان يرى فى نجاح مؤتمر مكة فشلا لأحلامه فى إحياء الخلافـــة الإســـلامية التى كان الملك فؤاد يصبو إليها، غير أن مقاطعة مصــــر للمؤتمــر مـــن الناحية الرسمية، لم تلبث أن انتهت بسقوط وزارة زيـــور باشـــا وتشـــكيل وزارة جديدة ائتلافية برئاسة عدلى يكن باشا، الذى قرر إشراك مصر فـــى المؤتمر فأرسل لذلك وفدا رسميا، ولا عزاء..

وأخيرا إذا كانت العبرة بالنتائج. فهل كان من الممكن أن تقوم إســـرائيل، وأن تعصف بالمنطقة الإنقلابات العسكرية فى ظـــل خلافـــة عثمانيـــة أو غـــير عثمانية، حتى لو كان ذلك الخليفة خيال المآتى.!؟

وإذا كانت الأيام قد أثبتت أن المستفيد الأول من القضاء علـــى الخلافـــة كانت الولايات المتحدة الأمريكية. فهل كان مخطط القضاء على الخلافة خطـــوة مبكرة نحو النظام العالمى الجديد. !؟

المحتويـــــــات

رقم الأيداع ١٦٦٧٨ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-17-0063-4